الباب الثاني

الأمة الإسلامية
ومشكلات العصر

الحلُّ من
جوهر الفكر الإسلامي

جوهر الإسلام

بين الجانب التشريعي العَقَدي
وبين الجانب الروحي التَّزْبوي

مدخل إلى البحث :

لا بد قبل التصديق على الشيء من تصوره ، لأن التصديق فرع التصور كما تقول المناطقة ، فما هي هذه التربية الروحية المعنية هنا ، وما علاقتها بالإسلام المحمدي الذي هو الدين الحق ؟

لا مُشاحَّة في الاصطلاح . . .

فقد دَرَجَ الناس على أن يُسَمُّوا الحقائق بأسماء مختلفة ، لا صلة لها بتلك الحقائق إلا بمقدار فهم الناس إياها ، فمن ذلك على سبيل المثال تسمية الناس المرأة في بلاد الشام (حرمة) أو (العائلة) وفي بلاد أوربة (المَدَام) وفي بعض البلاد (المخلوقة) وأحياناً في بعض الأرياف البعيدة (المعزاية) من الماعز ، وأحياناً يُقال لها (الخانم) أو (الآضم) .

وكل هذه الأسماء شيء والمرأة شيء آخر ، والناس يصطلحون ، ولا مُشَاحة في الاصطلاح ، ولهم أن يصطلحوا ، بل ويُسامح بعضهم بعضاً في ذلك ويحترم كلٌّ اصطلاح الآخر ولا يجادله فيه ، طالما المسمَّى واحد وكذلك هنا ، فبعض الناس يسمّون هذا الأمر (أخلاقاً) والآخرون

يسمونه (تزكيةً) وبعض علماء السلف يسمونه (سلوكاً) أو (سيراً) كالإمامين ابن تيمية وابن القيم وربما سماه البعض طريقةً أو زُهداً ، ودرج اليوم اسم (التربية الروحية) .

وأُردد القول الأول (لا مُشاحةَ في الاصطلاح) فلكل إنسان أن يصطلح طالما المقصود واحد .

فما هو هذا المقصود ؟ وما هي سماتُه الأساسية وهُويته الذاتية ؟

المسألة أبسط مما نتوقَّع ؛ فالإسلام الدين الحق دوحة عظيمة باسقة ، جذورها الضاربة في الأرض العقيدة ، وجِذْعها الشريعة ، وغصونُها الطريقة ، وثمارها الحقيقة .

وحديث سيدنا جبريل الصحيح يوضح ذلك ، فالدِّين أُشير إليه « إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وهو بعدُ ثلاثة أشياء : إسلام ، وإيمان وإحسان حسب التعبير النبوي الكريم .

فلفظ (الإسلام) في هذا الحديث النبوي يتطابق على ما نُسميه اليوم (الشريعة) ، ولفظ الإيمان يتطابق على ما نسميه اليوم (العقيدة) ولفظ الإحسان فيه مرتبتان : مرتبة دنيا « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهو ما نسميه اليوم (الطريقة) ، ومرتبةٌ عُليا « أن تعبد الله كأنك تراه » وهو ما نسميه اليوم (الحقيقة) .

فقد عبر حديث سيدنا جبريل عن الدين بأكمله في كلمات ، وأقام لهذه الدوحة العظيمة مقاماً جليلاً ، وأعطى كلَّ ذي حق حقه ، وجعل توازناً حكيماً وتكاملاً عجيباً مُذهلاً لم تعرفه الدنيا إلا في ظل هذا الدين العظيم .

فإذا كانت الشريعة مناطها الجوارح ، والعقيدة مناطها العقل والقلب ، والطريقة ليست إلا تطبيقاً عملياً للشريعة وآدابها وامتداداً

لجذعها ، فالحقيقةُ ثمرة ذلك كله ومناطها الروح الإنسانية النورانية بإشراقها ، وذلك أخذاً من الأثر : « من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم وبارك له في علمه حتى يُدخله الجنة » .

فَسَمِّ أنت إن شئتَ هذا المقام المعبَّر عنه في حديث جبريل بالإحسان ، سَمِّه (طريقةً وحقيقةً) أو (تصوفاً وعرفاناً) أو (تربيةً روحيةً) فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجه الله ، وأيّما اسم سمَّيت به فلن تَعْدُوَ ما ذكرتُ من قبل .

* * *

البحث :

بعد هذا كلِّه يجدر بنا أن نتساءل ، ونحاول أن نقف على الحقيقة المجرَّدة من العواطف والأمزجة والأهواء ، فأنا هنا لا أنطلق من كوني مؤيِّداً للتصوف أو مناهضاً له ، مع التربية الروحية أو ضدها ، محباً للزهد والزاهدين أو حَرْباً عليهم . . .

لا : ثم أَلْفُ لا . . .

إني هنا أتكلم منطلقاً من فِكْرٍ مجرَّد تماماً ، إلا من المسلَّمات العقلية والنّقلية لدى الباحثين المنصفين ، تاركاً ما سوى ذلك غيرَ آسفٍ عليه ، ولا مُتلفِّتٍ إليه ، فحسبي أني بحثت عن الحقيقة المجردة بإخلاص وإنصاف وتجرد بِقَدْر استطاعتي وإمكاني ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٧] . ولا أزعم أن ما توصلت إليه هو حكم الله في الواقعة بل هو أقصى ما وصلت إليه وظهر لي ، وفوق كل ذي علم عليم .

وبعد ، أودّ أن أتساءل . . . .

أفيجوز بعد هذا كلّه أن تظهر هذه المفاهيم على الساحة كلٌّ على حدة ، لا يجمع بينها جامع ولا يربط بينها رابط ؟ وهي في حقيقة الأمر مفهوم واحد كلٌّ يشتمل على أجزاء لا كلّي يشمل أفراداً . . . وفرق كبير بين الكل والكلّي كما تعلمون .

وهنا تكمن المشكلة . .

إنّ غياب هذا الفرق من الأذهان أحدث تخليطاً كبيراً وتشوشاً عظيماً ، بحيث أدَّى ذلك إلى انحراف فكري كبير ، غابت فيه الرؤية الصحيحة لهذه المفاهيم المتنافرة ، والذي أثار هذه الهجمات وزادها أُواراً واشتعالاً وجودُ انحراف فكري خطير في أذهان كثير من الفقهاء وكثير من الزهاد والعباد ، نتيجةً لفصل الجانب التشريعي عن الجانب الروحي أصلاً . . .

وأبرز ذلك أمران اثنان :

١ـ فمن ذلك وجود الجفاف الظاهر في حياة أكثر الفقهاء المتأخرين ، وبُعْدُهم عن جوهر الفقه ومقاصده ، ويتجلَّى ذلك بوضوح فيما بعد القرون الثلاثة المشهودِ لهم بالخيرية فلقد كان القرن الأول والثاني لا فرق أبداً بين ظاهر الفقه وباطِنِه ، وفي القرن الثالث ظهر بعض الفَرْقِ بين الزهد والأحكام فسُمِّي من يطبق الفقه على نفسه ويزهد في الدنيا زاهداً ، وسُمِّي من ليس كذلك من العلماء فقيهاً أو عالماً ، ولكنّ هذا الفرق كان خَفيّاً أحياناً وظاهراً أحياناً أخرى ، حتى إذا ما انقضى عصر السلف وجاء الخَلَفُ بعد الثلاثمئة للهجرة ، ظهر الفرق بين الطائفتين حتى سُمُّوا (طائفتين) ، وهم في حقيقة الإسلام طائفة واحدة (الأمة الإسلامية) ولكنّ انشغال كل قوم بما لديهم وازدراءهم بغيره ولَّد هذا الفَرْقَ ، ولا زال هذا الشَّرْخ أو الصَّدْع يكبُر ، حتى جاء يوم على المسلمين حارب فيه الفقهاء الزهادَ ، وحارب فيه الزهادُ جماعةَ الفقهاء ، وحصل بينهم ما لم

يحصل بين اليهود والنصارى من الإحَن . . . والأمر أهون من ذلك بكثير . . .

ظَهر التوافق التام والتطابق الكامل ، بحيث كان الإسلام ديناً ذا مفهوم واحد ، بعدة اعتبارات ومن عدة زوايا واتجاهات ، ظهر في النصوص القرآنية والحديثية وفي أقوال الصحابة وأفعالهم ، وفي عمل التابعين ، وفي حياة الأئمة المجتهدين ، ثم في منهج المتقدمين من أهل العرفان ، كرجال الرسالة القشيرية والإمام حجة الإسلام أبي حامد رضي الله عنه ، ثم حياة القطب الرباني والإمام عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ، ثم قلَّ هذا التوجُّه النقي حتى صار في أفراد مخصوصين معيَّنين لا يتعداهم ، جعلهم الله سرج هداية وأقمار عرفان من أصحاب الرسوخ والتمكين وأرباب القلوب رضوان الله عليهم أجمعين ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى : ١٣] والواقع أن ظاهرة التجديد التي بشَّر بها الإسلام العظيم في نصوصه القاطعة ، تهيمن على هذا التصور الصحيح للدِّين بشريعته وعقيدته وحقيقته ، فقد أخرج البيهقي مرفوعاً « إن الله ليبعث على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها » ، والمجدِّد لأمر هذا الدين هو الذي تصل إليه وراثتُه كاملةً فيُحيط ببنائه وأساسه الإحاطةَ التامة ، فهو إمام في الأحكام والحدود ، إمام في العقائد وعلم الكلام ، إمام في التطبيق العملي للإسلام ، إمام في الحقائق والأذواق والمشاهدات ، يستطيع أن يقف من الجميع موقفَ المرشد المجدِّد الإمام ، وهو ما نحتاجه اليوم . . . قبل كل شيء . . . قبل الخبز . . . وربما قبل حاجتنا إلى الهواء . . .

* * *

٢ـ ثم هنالك أيضاً من أبرز مظاهر الانحراف الذي ولَّد هذه الفُرقَةَ المشينة بين طرفين متكاملَيْن ، لا يكاد يعيش أحدهما بدون الآخر ، وجودُ البدع والزيادات في سلوك بعض أدعياء التصوف ، وكم في العلم من أدعياء ، أحدثوا في طريق الله عز وجل ما ليس منه ، وأوجدوا هُوَّةً شاسعة بين الشريعة والحقيقة ، بحيث أصبحت الحقائق لديهم أمزجةً وأهواءً لا معيارَ لها يضبطها ، ولا ضابطَ يجمعها ، فلبَّس عليهم الشيطان مقولاتٍ فارغةً فوقعوا في الحلول والاتحاد ، والإسلام منهما بُراء ، ووقعوا في وحدة الوجود بمعناها الحلولي الاتحادي الصِّرف ، ونتيجتُها الإباحيةُ المطلقة . والإسلام حرب على هذه الأفكار الدخيلة الخبيثة ، لكن هو البعد عن الشريعة وحدودها ، فزاد هذا الأمر الطين بِلَّةً .

تعالوا بنا بعد ذلك إلى هؤلاء القوم وحياتهم وسلوكهم النقي ، فها هي كُتب التراجم والتواريخ تشهد كلها متضافرةً على استقامة ظواهرهم على الشريعة المطهرة ، وبواطنهم على الطهارة والتزكية والصفاء والنور ، فتحقق لديهم الفيض ، وواعدهم الفتح ، ونطقت عبائرهم رضي الله عنهم بما رزقهم الله تعالى من الأنوار والعلوم الوهبية . ومن اسْتَقْرأَ حياة هؤلاء المشاعل وجدها منوَّرةً بالقرآن متوَّجةً بالرضوان ، مكلَّلةً بإكليل الاتِّباع ، بعيدةً كلَّ البعد عن الابتداع ، فرضي الله عنهم ما أعرفَهم بربهم . ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾

[البينة : ٨] .

* * *

بقيتْ أمامنا مشكلات لا بد لنا من التعرض لها وهي ثلاث : وحدة الوجود ، والتفسير الإشاري ، والمتشابه من كلام القوم وهو شيء غير الشطح كما هو معلوم .

١ـ فمشكلة وحدة الوجود ذهب فيها العلماء الأقدمون مذاهبَ شتى ، ولكنَّ القاسمَ المشترك الأعظم بينهم أن فكرة الحلول والاتحاد ، مرفوضة تماماً من الساحة الإسلامية ، بل هي زندقة وكفر ووثنية ، وهذا القَدْرُ متفق عليه . ومن الناس من ذهب إلى أن وحدة الوجود لا تعني مطلقاً في نظره إلاّ الحلول والاتحاد ، فهي مرفوضةٌ اسماً ومسمّىً ، وهؤلاء هم جمهور العلماء الأقدمين ، وأتوا عنها ببديل هو وحدة الشهود ، وميَّزوا بينهما بفرق واضح فقالوا ما مفاده : إنَّ وحدة الوجود هي امتزاج الخالق بالمخلوق ، واتحادهما معاً في شيء واحد ، بحيث يذوب الفرق بين القديم والحادث ، كاعتقاد النصارى في المسيح واليهود في عُزير والبوذيِّين في بوذا وما شابه ، وهو كفر بَوَاح يُخرج قائله المعتقد به عن الملة فيُستتاب أو يُقتل .

بينما وحدة الشهود مقام عرفاني كبير تتقطَّع دونه أعناق الرجال ، وهو إثبات الفرق بين الخالق والمخلوق ، بين القديم والحادث وهو المقصود بكلام العارف ابن عربي (الرب رب والعبد عبد) فلا الربُّ يصير عبداً ولا العبد يصير ربّاً بل يستحيل ذلك.ورحم الله القائل عن الحق (في القيد نحن وهو في الإطلاق) .

أما وحدة الشهود بمعناها الذوقي فهي مع هذا الإثبات النظري والعملي لكل من الرتبتين ، فإن الحُبَّ سلطان قاهر يجعل المحب عاشقاً ولهان ، لا يكاد يلتفت إلا إلى محبوبه ، والعارف قطعاً محب للحق عز وجل حُباً تيَّمه وقطع نياط قلبه فهو لا يكاد يرى غيره ، بل يُذْهَل عن الخلق كلهم لبقاء نظره للحق ، فهو مُثْبتٌ مذهول معاً في آن واحدٍ ، وهكذا يكون قلب العارف متجهاً للحقِّ فقط دون سواه يرقبه ليشهده بعينيْ قلبه ، فإذا رأى قلبُه أنوارَ الحق وقف مذهولاً عن كل شيء ، فإذا ذهبتَ

تسأله ألا يوجد هنالك غير الحق ؟ لقال لك : يوجد خَلْق ولكنهم لضآلتهم وضآلةِ شأنهم أمام الحق ، أنا لا أراهم ولا أكاد ألتفتُ إليهم أين هم ؟ فهو يُثبت ولكنه لا يرى . . .

وأما التفسير الإشاري فنتعامل معه بشروط ستة :

١ـ **الشرط الأول** : أَلاَّ يصادم نصاً تشريعياً أو حكماً أو خبراً صادقاً جاء به الوحي ، أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، أو ما انعقد عليه الإجماع ، أو المسلَّمات العقلية لدى العقلاء .

٢ـ **الشرط الثاني** : أَلاّ يخالف أصلاً من أصول الدين أو عقيدة من العقائد المنجية .

٣ـ **الشرط الثالث** : أَلاّ نُلغي به التفسير البياني أو ما يُسمَّى بالظاهر ، وهو ما ذهب إليه المفسرون بمقتضى العربية ، وقضايا الشريعة ودلالات الألفاظ ، ومعايير أصول الفقه .

٤ـ **والشرط الرابع** : أَلاّ نزعم أن هذا هو مراد الله من هذه الآية ، بل نقول هو ما فهمناه من الآية فقط دون تألٍّ على الله .

٥ـ **والشرط الخامس** : أَلاّ يناقض الحقائق العلمية الثابتة بالبرهان القاطع .

٦ـ **والشرط السادس** : أن تحتمله قواعد العربية ولو بوجه من وجوه التأويل الصحيح .

فالتفسير الإشاري إذاً لا نقبله مطلقاً ولا نرفضه مطلقاً ، بل ننظر في أمره فإن توافرت فيه هذه الشروط فبها ونعمت وإلا فلا . . .

٢ـ وأما المتشابه من كلام القوم فخلاصة القول فيه ، إذا صدر هذا المتشابه من عارف شهدتْ استقامة ظاهره على طهارة باطنه ، وامتلأت حياته مجاهدةً لنفسه وتزكيةً لها ، فنحن أمام احتمالين :

ـ إمّا أن نكون قد فهمنا هذه الرموز وفكّكناها وردَدْناها إلى المُحْكَم ، وذلك عن طريق أهل العرفان المتخصصين في هذا الشأن المتبحرين فيه .

ـ وإما ألاّ نقدر على ذلك ، فلا نحكم عليهم بالكفر ، لجهلنا ومُجَرَّدِ قلة فهمنا باصطلاحاتهم ، بل نفتح باب التأويل لإنسان محب ضاقت العبارة عن حُبّه ، وهو بَعْدُ مخلوق ضعيف ، ونحن قد فتحنا باب التأويل لكلام الشارع المتشابه في القرآن والسنّة ، والشارعُ وهو الله تعالى معصوم وقادر وقاهر ، فالإنسان أحوج إلى التأويل لضعفه أمام ربه ، وأشهد أنْ لو أوَّلنا لهؤلاء الأولياء ، عُشْر ما أوَّلْنا للشارع الحكيم لما كفَّرنا منهم أحداً . . .

ثم لِمَ هذا التجني كلُّه ، على قوم كانت حياتهم إشراقةً من إشراقات السماء على الأرض ، كلُّها طهر ونور ، وهم واللهِ سُرُج الهدى ومصابيح المعرفة ، لِمَ هذا كلُّه ، هل لدينا علم يقيني أن هذا الكلام ، الذي لم نستطع فهمه ولا تأويله هو كلامهم ؟ لا ولا علم ظني . . .

إذاً ، فما الذي يدعونا إلى محاربتهم وإساءةِ الظن بهم ؟ فنقولُ فيما لم نعلم تأويله ولا مغزاه ، لعله زِيدَ على كلامهم وكذب به بعض الخبثاء عليهم وعلى ألسنتهم ، كما ذهب إليه الفيروزأبادي ، وسطَّر له الإمام الشعراني كتاباً قائماً برأسه هو (اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر) وهو كتاب قيِّم ، قرأتُه كاملاً فيما قرأتُ على والدي ، طَيَّبَ الله ثراه .

أما الأدوية والعلاجات التي كتبها المتصوفون الأقدمون ، لعصرهم رضي الله عنهم ، فهي وسائل وليست مقاصد ، وأرى أننا لسنا ملزمين بها ولا متعبَّدين فيها ، بل نرجع إلى جوهر الإسلام وعلاجاته الروحية الرشيدة ، وفي ذلك غَناءٌ وأيُّ غَناءٍ .

أما بعد ،

فماذا الذي يخيفنا من الأخذ بالتربية الروحية ، بعد هذا التطابق الذي شهدناه بين الجانب التشريعي والجانب الروحي في الإسلام ؟ ولماذا نحارب إفراطاً بتفريط ؟! وخطأً بخطإٍ مثله ؟!

لماذا نحارب التربية الروحية بما فيها من سموّ خُلُقي رفيع ، ومعانٍ إنسانية نَدَر وجودها في أي دين آخر أو فلسفة وضعية ؟ بِحُجة أن هذه التربية الروحية تشتمل على بدع وشوائب ؟

لمذا نَبْقَى على جفاف العلم والعقل ، ولا نغوص على أعماق الإنسان ، فنحلَّ له مشكلاتِه النفسية في عصر نحن أحوج فيه اليوم إلى شفافية التربية الروحية في أَتُّون الحضارة الغربية المادية العرجاء ، وضمن ضجيج الآلات وهدير المعامل ورُخْصِ الإنسان أمام العَلْمَنة . . . والمادة . . . المادة الطاغية . . .

إذا كان ولابد فلْنحاربِ الخرافة والخرافيِّين ، والبدعَ والمبتدعةَ . . . والانحرافَ والمنحرفين ، ولْنَدَعْ لنا الجوهر واللُبَّ ، ولْنبتدرْ إلى هذا السلوك الصاعد المضيء إلى الله عز وجل ، على معارج السمو الإنساني وبمعيار الشريعة الغراء .

أليس من الخير للإنسانية وللإنسان المعذَّب اليوم ، بالرغم مما وصل إليه من تَقَنيةٍ . . . أليس من الخير له أن نَدُلَّه على عيوب نفسه فيصلحها ويزكيها ، وندلَّه على الله فيحبه ويتوق إليه ، وندلَّه على الإنسانية المعذَّبة فيرحمَها ، بدلاً من أن يزيدها عذاباً فوق عذاب ، وبدلاً من أن يكون شيطاناً مَريداً ، يسعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وندلَّه على معنى من

معاني قول نبينا ﷺ : « الخَلْقُ كلُّهم عيال الله ، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

ألا ترون معي أن العالَم المعذَّب ، يبحث عن الدواء الروحي ويشتدُّ إليه ، فقد شبع من المادة ونال منها طِلْبَتَه وأكثر ، وهو يتوق إلى عوالِم الإشراق ، عوالِم المحبة ، عوالِم النور ، ليحقق إنسانيته التي افتقدها ، وسُرقت منه ليُعطَى بدلاً منها كؤوساً من الشهوات الحسية المجنونة ، التي أدت به وبأمثاله بالضرورة إلى الانتحار . . . وهل هناك أعلى نسبةً في الانتحار من بلاد الغرب المادي العلماني ؟!

إننا مع العلم وليس مع العلْمنة .

فالعلم يوصلنا إلى الله ، ولكن العلمنة تودي بنا إلى الهلاك والدمار .

العلم النافع هو العلم المقرون بالعمل ، وبالخشية من الله ومحبته وامتثال أمره ، والوقوف عند حدوده عز وجل . وفي الحديث « العلم علمان : علم في القلب وذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان وذلك حجة الله على ابن آدم » .

إن المُنْصِفين من أهل أوربا ، يقفون اليوم على أعتاب الإمام الغزالي حجة الإسلام أبي حامد ، وكلام المحاسبي وحكم ابن عطاء ، يقفون بكل احترام وتوقير متتلمذين على هذه القمم . . .

إن السلفية الحقة في نظري التي تحب السلف وتعظمه ، تجتمع مع الاتجاه الروحي الإسلامي النقي لأمثال بشر الحافي ومعروف الكرخي وداود الطائي وسلوك أبي حنيفة النعمان بن ثابت وذي النون المصري والسيدة رابعة العدوية ، كما يجتمع الاتجاه الروحي الإسلامي النقي المصفَّى مع حياة الإمام أحمد بن حنبل ، وفقه الشافعي وأدب مالك ، وورع سفيان الثوري ، وزهد ابن المبارك ، أليس هؤلاء سلفاً ؟ أو ليسوا

كذلك متصوفين ؟! وزهاداً من الطراز الأول.. ؟! هذا لديَّ هو الحق... الذي لا مرية فيه...

وماذا بعد الحق إلا الضلال...

* * *

ولا والله...

لا قيمة أبداً لحقيقة لا تؤيّدها شريعة... بل هي زيف وضلالة... وزيغ وزندقة .

ولا والله...

لا ينتفع الناس بأحكام وشرائع إذا لم يكن معها حالة من الحب الإلهي ، وَوَجْدٌ مستكنٌّ في القلوب ، وصدق مع الله عز وجل وشوقٌ إليه ، ويقظةٌ تسوق صاحبها إلى هذا النبع الإحساني النوراني الذي لا ينضب ، وهذا المورد العذب الإلهي الذي لا يغور .

إننا اليوم أيها الناس بحاجة إلى التربية الروحية المستمدة من القرآن والسنّة ، وعمل النبي صلوات الله عليه وعمل أصحابه ، والقرون الثلاثة المشهودِ لها بالخيرية ، ومن ورثهم من أهل العرفان والشهود ، بحاجة إلى الجوهر دون الشكل... إلى لب التربية الروحية الإسلامية دون قوالبها وقشورها... إلى صحبة الصادقين من العلماء بالله الدالين عليه ، فما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح...

إننا بحاجة إلى روحانية الذاكرين وبكاء العابدين وتبتُّل المتبتّلين ، أكثرَ من حاجتنا إلى تكايا للمتصوفين...

* * *

لمّا نزل قول الله تعالى في أول سورة الحج : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج : ١-٢] . ظلَّ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ثلاثة أيام ، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون وهم يبكون . . .

وحديث حنظلة : « نافق حنظلة يا رسول الله . . . قال : وما ذاك ؟ قال : إنك تذكرنا الجنة والنار حتى كأنّا نراهما رَأْيَ العين ، فإذا ذهبنا فعافسْنا الأموال والأزواج نسينا كثيراً ، قال : والذي نفسي بيده يا حنظلةُ . . . لو تكونون بعدي كما تكونون معي لصافحتْكم الملائكةُ على الفرش وفي الطرقات ، ولكن ساعةٌ وساعةٌ » .

وكذلك حديث حارثة : « كيف أصبحتَ يا حارثة ؟ قال : مؤمناً حقاً . . قال : انظر ماذا تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عرضتُ نفسي على الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها ، وأظمأت نهاري وأسهرتُ ليلي ، فكأني أنظر إلى عرش ربِّي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون ، وإلى أهل النار في النار يتعاوَوْن ، قال : عرفتَ فالْزم عبدٌ نَوَّر الله الإيمان في قلبه » .

هذه نماذج من ثمرات التربية الروحية الإسلامية في عهد النبوة وفي صدر الإسلام ، فيها المضمون دون الشكل ، فيها الجوهر دون المظهر ، فيها حقائق الدين ولو لم يوضَع لها إطار . . . وهو المطلوب الأول اليوم وقبل كل شيء . . .

* * *

أليس من المؤسف أن تمتلىء دنيا المسلمين كتباً وعلوماً وجامعاتٍ ومدارسَ ومعاهدَ ومفكِّرين ، ثم لا يكون من ذلك كلِّه إلا غُثاءٌ كغُثاء السيل . . . ؟!

أليس من المخزي أن يكون لدينا كلُّ شيء ، ثم لا يأتي منا اليوم شيء ؟!

أليس من البلاء أن يتقاتل المسلمون في المساجد ، من أجل أمور مختلَف فيها ثانوية لا تقدِّم ولا تؤخر ، ويتركوا الدنيا من حولهم تعج بالإلحاد والعلْمنة والفجور ، مما هو متفق لدى المسلمين قاطبة على وجوب محاربته ؟!

أليس من غير المعقول أن نبحث عن الأسماء والاصطلاحات ، فنحارب منها ما لم نستسغه ونترك ما استسغناه ، ونترك الحقيقة المجردة لا نبحث عنها ولا نهتم بها ولا نوليها أية عناية أو اهتمام ؟! كأنها لا تعنينا ولا علاقة لنا بها من قريب ولا من بعيد ؟!

اللهم غَفْراً . . . فلقد اشتطّ بي القول وجمحَ القلم ، فأستميحكم عذراً والحديث ذو شجون . . .

* * *

رسالة مفتوحةٌ

إلى شُبَّان الأمَّة العربيَّة المُسْلِمَة

حين أمسكت بالقلم ، لِأخُطّ هذه الكلمات ، دَارَ بِخَلَدي أمور كثيرة . . . دار بِخَلَدي أمر هذه الأُمَّة المسكينة ، فكنت أَرَى المسلمين في هذه الحالة البائسة ، من تنابزهم وتمزقهم وطعن بعضهم ببعض ، وتجريح أعراضهم وانتهاك حرماتهم بعضهم لبعض ، فكانت نفسي تكاد تذهب عليهم حسرات ، وأكاد أتمزق أسىً لِمَا أَلَمَّ بهم ، فكنت أَقول لنفسي والحزن يَمْلأُ قلبي : لو أن المسلمين نزعوا ما في قلوبهم لبعضهم من غِلٍّ ، وبدؤوا يتآخون ويمدون يد المعونة فيما بينهم ، وتعاقدت الخناصر منهم على الود والإِخاء ، وأصبحوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص ، وبدلاً من إنفاق الألوف من الليرات على الكماليات والترف والبذَخ ، ولو بذلوا ذلك لتقوية أنفسهم أمام أعدائهم ، ولتنمية مشاريعهم الزراعية والتجارية والصناعية ، أقول لو أنهم فعلوا ذلك ، لَما بقي على ظهر الأرض أمة تسبقهم في مضمار الحضارة . . .

يا أشبال الإسلام . . شيء واحد تستطيعون به أن تكونوا أعزَّ أمة في الأرض ، وأقوى أمة في العالَم ، وتستطيعون به أيضاً أن تطردوا شذّاذ الآفاق وقتلة النبيين من قبلُ ، شيء واحد إن فعلتموه أضمن لكم على الله النصر . . شيء واحد هيِّن صعب ، هيِّن على من يَسَّرَهُ الله عليه ، وصعب

على من في قلوبهم مرض ، شيء واحد تنالون به عزّ الدنيا والآخرة ، وتربحون به النصر والجنة ، هو القيام على الإسلام وتبنّيه مبدأ وسلوكاً .

وإن أردتم الدليل على قولي هذا ، فارجعوا فاقرؤوا سيرة صلاح الدين ، الذي أخرج أوروبا وأبطالها وملوكها من بلاد المسلمين ومن بيت المقدس ، بعد أن أسَّسُوا دولاً عتيدة في بلادنا هذه ، أنافت على قرن من الزمن ، أَخْرَجَهم يا بني قومي بالإسلام ، وبالإسلام وحده .

أجل . . . فكرت في واقع العالم الإسلامي المتفكك المتجزىء المنهار ، وقلت : ما أشبه اليوم بالبارحة ، ولكأن التاريخ يعيد نفسه .

أجل يا أحفاد صلاح الدين ، لا تيأسوا فالسلاح الذي حارب به صلاح الدين أوروبا مجتمعة ، وانتصر عليها وطردها من الشرق ذليلة خاسئة ، هو اليوم بأيديكم أنتم يا أشبال الإسلام ، والسلاح الوحيد هو : هذا الدين . . أجل . . فكّرت في ذلك كلّه ، ودار أمام ناظريَّ حاضر المسلمين وغابرهم ، فوجدت فرقاً عظيماً وبَوْناً شاسعاً . . دار أمام ناظريّ تاريخ الأمة الإسلامية زمن الغافقي ، وعُقبة بن نافع وقتيبة بن مسلم وطارق بن زياد ، وموسى بن نصير والقعقاع ، وخَولةَ وضرار ، دار ذلك أمام عينيَّ ، فوجدت المسلمين بالأمس غير المسلمين اليوم ، مسلمو الأمس كان صولجان المجد بأيديهم ، وذُؤابة العز ورهبة الملك ، وهيبة السلطان وأبَّهة الحضارة عنوان دولتهم ، تَهابهم الملوك وتخشى بأسَهم الدنيا ، وتخاف صولتهم الأباطرة ، وترجف من هول بأسهم القياصرة والأكاسرة . أما اليوم ، فهم في مؤخِّرة الرَّكْب لا هم السادة ولا الذَّادة ، بل هم قوم نِيَام ، نام النوم من كَرَاهُم ، وملَّت الأرضُ طول رُقادهم ، وضجَّت الدنيا من طول سُباتهم . . فما الذي جعلهم في هذه الحالة البائسة ؟ ؟ بعد أن كانوا ملوكَ الدنيا وسلاطين الأرض . . ؟ وتَأَمَّلْتُ قليلاً

فوجدت السبب واضحاً جلياً . . . وجدتُ المسلمين اليوم . . ولكنني لم أجد الإسلام فيهم ، إسلامَ الصحابة الفاتحين ، مختلفين بعد أن كانوا متفقين ، ومتنابزين بعد أن كانوا متآخين ، ومتحاربين بعد أن كانوا متناصرين ، ومتشاحنين بعد أن كانوا يداً واحدة على أعدائهم ، وسبب ذلك كلِّه حب الدنيا وتعظيمها ، وترك التجارة الرابحة والزهد فيها ، هذا هو الداء ودونكم الدواء .

فاللهُ تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَانَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٠-١٣] .

* * *

أضواء على مشكلات الشُّبَّان المعاصرة وعلاجها الإسلامي

(١)

في هذا العصر المُتْرَعِ بالتيارات الفكرية الغَازيةِ لشرقنا المسلم ، تظهر مشكلات لم يكن لها وجود من قبلُ ، مُشْكِلاَتٌ نشأت بنشوء الحضارة الحديثة ، وأخرى بالْتقاء الشرق المتأخِّر في حضارة الوسائل مع الغرب المتقدِّم فيها أشواطاً بعيدة ، وثالثة نشأت من الأوضاع السائدة حالياً في هذا الصُّقْع من العالم ، وما ذلك إلا نُذُر سُوءٍ وإشارة خطر وافد قريب ، وَتَصَدُّعٌ وَشَرْخٌ واضحُ المَعَالِمِ في بناء الأمة الإسلامية والعربية ، وعلامة تدهور نحو الهاوية المُدَمِّرَة ، هاوية الهلاك الشامل ، وإنما جَعَلْتُ الشباب موضوع البحث ، لِما هو معلوم من أنهم درع الأمة وسيفها المُرْهَف ، ومحل الحركة والنشاط والحيوية ، وأُسس البناء الشامخ ، ومتى انهار الأساس ؛ انهار كل شيء . . . بَعْدَهُ . . وهذا ما جعل المفكرين والباحثين في العالَم كلِّه ، يلتفتون نحو الشباب في كل نهضة يرجونها ، وفي كل إصلاح يرتجونه ، وأنا حين أقول الشباب لا أقتصر على صنف الذكور فقط ، كما هو منطوق العبارة ، بل أقصد إلى الذكور والإناث معاً ، كما هو معلوم من نصوص اللغة ، وقبل أن نتجه إلى الشباب ، نطالبهم بالنهضة المرجوة ، واليقظة المنتظرة ليرفعوا عن أمتهم

ما لحقها من بقايا الذل والاستعباد ، ورواسب التأخر والتخلف .

قبلَ ذلك كلِّه وجب علينا أن نعيد النظر في حالة الشباب التي تحكمهم ، والأوضاع التي تسيطر عليهم ، ونبحث عن المشكلات التي تشل حركتهم ، وتوقف كل إصلاح مرجوٍّ منهم ، فلقد عبّر الحكماء عن ذلك بقولهم قديماً : (التخلية قبل التحلية) ، وأيُّ مطالبة أو مناشدة أو بناءٍ جديد لا يتم ولا يثمر ، ولا يكون له أيُّ رصيد من النتائج المَرْجُوَّةِ ، ما لم نُخَلِّصِ الأساسَ مما علق به من عوامل الهدم والنخر ، فننتشل منه ما يعوقه ويجمده ، ويَشُلُّ حركته ونستأصل جذور الفساد ، حتى إذا ما صح لنا أساس متين وجذور ضاربة في الأرض وبناء راسخ ، ذَهَبْنَا بعد ذلك إلى المراحل الأخرى من مراحل إقامةِ ذلك البناء الشامخ العتيد . . .

وإني لأكاد أَتَحَرَّقُ مما أراه من حالة الأمَّةِ في شبابها ، وأشاهده من عدم المبالاة وقلة الاكتراث ، والبحث عن اقتناص اللذة الذاهبة والشهوة العارمة ، وما أَلْمَسُهُ كلَّ يوم من تآكلٍ وتفتُّت ، وتفسخ كريه في حالة شباب أمتنا وشاباتها ، فبحثت عن وسيلةٍ للإصلاح ناجعة ودواءٍ شَافٍ ، فما وجدتُ سوى وسيلة الأنبياء والرسل ، وأتباعهم من أئمة الإصلاح وزعماء حركة التجديد في العالَم ، وهي الكلمة الصادقة . فبالكلمة غَيَّر الرسل والأنبياء عقائد أقوامهم ، وبالصدق أَوْصَلُوهم إلى الحقيقة وما يتبعها من الرقي والتقدم والرَّخاء . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

ومن غياهب الظلام يخرج النور ، ومن دلج الليل ينبثق الفجر ، وعسى أن يكون فيما أُقَدِّمه في هذا البحث عظةٌ حسنة وحكمة بالغة ، وإنني غير يائس .

ولن أعدم الخير في هذه الأُمَّة أبداً ، فخيرها في أولها وآخرها إن

شاء الله تعالى ، وعسى أن يكون في آخرها من يجدِّد لنا عهد الأوائل .

إنَّ صاحب الدعوة الرسول العظيم ﷺ ، لما بَدَأ يدعو الناس إلى دينه اتجه إلى الشباب أوَّلاً ، وأعطاهم الاهتمام الأوَّل ، فاتجه إلى سيدنا علي رضي الله عنه وكرّم وجهه ، وكان يومئذ غلاماً ما بلغ الحلم ، فدعاه فاستجاب ، ثم اتجه إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وكان يومئذٍ في إهاب الشباب ، فدعاه فاستجاب ، وهكذا عَلَّمَنَا ﷺ ما في مدرسته الأولى للدعوة أن نبدأ من الشباب ، فإنَّ شباب الدعوة يكتسب نضارته من نضارة الشباب .

ولا والله ما قامت دعوة في العالَم إلاّ على سواعد الشباب ، إذْ الدعوة تحتاج إلى حركة وهمَّة وحيوية ونشاط ، وهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أن نجد ذلك في غير الشباب ، شباب هذه الأمة الذين لهم علينا حق التوجيه والإرشاد ، وجمع الطاقات فيهم وتجنيدها في سبيل الله والإسلام ، فمن الشباب أبدأ وإليه أعود ، إليهم أُوَجِّه رسالتي المفتوحة هذه ، إلى قلوبهم الطيِّبة ونفوسهم الشريفة وهممهم العالية ، إلى إيمانهم البكر ، وصدقهم الذي لا يشوبه رياء ولا تخاله مداهنة ، إلى شباب أمتي المجيدة أُوَجِّه هذا الخطاب . . إلى شباب أمتي الذين يبحثون عن الحقيقة فيضلون السبيل . . إلى شباب أمتي الذين ينتظرون على الدرب وطال بهم الانتظار . . . ، إلى شباب أمتي الذين يُجاهدون من أجل الحياة الرغيدة والمستقبل الزاهر والعيش الأفضل . . إلى شباب أمتي الذين جهلوا حقيقة هذا الدِّين ، فذهبوا يبحثون عن غيره من النظم ما يُحَقِّق لهم ما يحملون فيه . . إلى شباب أمل الأُمَّة المرجوّ ، ووجهها المشرق ، ونورها الوضاء . . . إليهم هذا الخطاب . .

* * *

(٢)

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] . وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله ليحب الشاب ليست له صبوة » وفي رواية « لَيَعْجَبُ من شابٍ ليست له صبوة » .

يا شبَابَ الأمة . . هل عرفتم منزلتكم بعد هذا كله من الله تعالى ومن عباده ؟ ومن أنفسكم ؟ ما أظنكم عارفين ! ! .

أجل إن الشباب يحمل طابع القوة والطموح والرجولة والبناء ، ويتميز بالنشاط والحركة ، وهو ربيع العمر وهو العمر كلّه ، وقد صدق الشاعر حيث قال :

إنّما العمر صحةٌ وشبابٌ ... فإذا ولَّيا عن المرءِ وَلَّى

يا شباب . . إنَّ التضحيات لا يُقَدِّمُها إلاّ الشباب ، وإن الأفكار والمبادىء لا يحملها إلا الشباب ، وإنَّ الهمم للشباب ، وإن الأمجاد للشباب ، وإن الدنيا لا يعمرها إلا الشباب ، وإنَّ الظلم لا يزيله إلاّ الشباب ، وإنَّ الطاغوت لا يهدمه إلاّ الشباب ، وإن الحق لا يُعليه ويُقَوِّيه إلا الشباب ، وإنَّ الباطلَ لا يوهيه إلا الشباب ، وهل رأيت أو سمعت قطُّ أنَّ دعوة من الدعوات أو رسالة من الرسالات أو نهضة من النهضات ، قامت إلا على سواعد الشباب ؟ ! ! ولا والله ما كان ذلك كلُّه ولا شيء منه لولا هِمَمُ الشباب . . . وهكذا نجد أن الله تعالى ورسوله ﷺ لم يبالغا أبداً لما خَصَّصا الشباب بالذكر في النصين السابقين ، فالإسلام إنما قام وانتشر على أيدي الأصحاب الأجلاّء ، وهل كان أصحاب محمد ﷺ إلا شباباً زُهْراً ، عرفوا مسؤوليتهم عن هذا الدين ، فقاموا بواجبهم الإسلامي على

أحسن صورة ، فنالوا من الله تعالى المثوبة والأجر والجنات ، ورضي الله عليهم ورضوا عنه . .

(٣)

أيها الأَحبَّة . . في خِضَمّ الجاهليات المعاصرة ، وفي غَمْرَةِ التيارات الفكرية المُضلِّلة ، يظهر دَوْرُ الشباب المسلم في قيادة سفينة المجتمع الجاهلي المنحرف إلى شاطىء الإسلام العظيم الذي يكفل للفرد وللجماعة ، سعادة الدنيا والآخرة . . ولكنَّ الشباب المسلم في هذه الأيام قد نسي إلا القليل ، رسالتَه القيادية لهذا المجتمع ، وظن أنما خُلق لقطف زينة الحياة الدنيا ، وللاستمتاع بالشهوات واللهو واللعب ، فأغرقتْه أمواج الباطل ، وجرفته تياراته المضلّلة ، فأصبح قطيعاً من الغنم إنما يُسَمِّنُه الجزار لذبحه .

وهكذا يَصْنَعُ الاستكبار الفكري بالشعوب المتخلِّفة ، يُبْعدها عن جوهر الدين ، وعن الأخلاق والفضائل ، ويليها ويغري شبابها بالاستمتاع بزهرة الحياة الدنيا ، ويَجُود سراً بالأموال الطائلة وأدوات الترف والبُلَهْنِيَة ، حتى إذا انماثت الأخلاق ، وذابت الفضائل ، واضمحلَّ تأثير الدين ، وأصبح الشباب منهاراً في غفلتِه وفي خلقه ، وفي عقيدته ، ليس له عقيدة يدافع عنها ، ولا مبدأ يذود عنه ، حتى إذا أصبح الشباب عبيد المال والشهوات ، عرف الاستكبار كيف يقضي على ذلك المجتمع الفاسد المتفكك المنهار من الداخل ، وهذا هو جوهر الغزو الفكري ، وهو أخطر الغزو وأفتكه ، وهو نهاية الأمة ودمارها .

وبعد . . فيا شباب الأمة . . لعل الكثيرين منكم يتساءلون عن موقف الإسلام من مشكلات الشباب المعاصرة ، ويتلفتون ذات اليمين وذات

اليسار عن حَلٍّ ، والواقع أن الإسلام قد وضع في نصوصه واجتهاداته الأدوية الشافية الناجعة لمشكلاتكم كلها ، وشخَّص الداء ، ووصف له الدواء ، ولكن مَنَعَنا عن استعمال الدواء جهلنا به ، وحين نستقرىء مشكلات الشباب نجدها تنحصر في أنواع ثلاثة فقط :

أ ـ مشكلات فكرية (أيديولوجية) .

ب ـ مشكلات مسلكية .

جـ ـ مشكلات نفسية .

وإني لأعتقد أن الشباب حين يجدون تشخيص هذه المشكلات تشخيصاً صحيحاً ، ويجدون إلى جانبها الدواء الناجع ، سوف يتخلصون منها ، وسوف يتمتعون في نفوسهم بعافية ما بعدها عافية . . وسينهضون بعد ذلك بالأمَّة من حضيض الجاهلية إلى عز الإسلام ، ومن ذل المادية الطاغية إلى رِفعة الإيمان . . ومن حمأة الوثنية الوخيمة إلى عوالم الإحسان والعرفان . . ويومئذ ينصر الله من يشاء من عباده الصالحين . . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . .

(٤)

ولعلَّ من نافلة القول أنَّ مشكلات الشباب ، إنما تنبع كلها وتصدر عن مشكلات الفكر ، ذلك لأن الفكر يلعب عندهم دوراً كبيراً ، ويأخذ من حياتهم قسطاً جسيماً ، وأي حل لمشكلاتهم لا يبدأ من الفكر فلا قيمة له ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي المشكلات الفكرية الرئيسة لديهم ؟ . . إنَّ الجواب عن هذا السؤال يتلخص في كلمتين اثنتين . . (الجهل بهذا الدين ، وحشو الفكر منهم بالتيارات الفكرية المسمّمة) فصار أمرهم كما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتَمكّنا

أما المشكلة الأولى : وهي الجهل بهذا الدين . . فهو رأس المشكلات ، ذلك لأنه يجعل من فكر الشباب مَرْتَعاً خصيباً لنمو الأفكار الهدامة والمبادىء المستورَدَة ، ويجعل منه بؤرة صالحة لقبول الإشاعات المُغْرِضة المشبوهة ، والأخبار الكاذبة المشوّهة لسمعة الإسلام ورجالاته . .

كما أن الجهل بهذا الدين يجر إلى فهمه فهماً أعوج أو أبتر أو ناقصاً ، كَمَن ينظر إلى الإسلام إلى أنه دين روحي بحت ، أو تشريعي بحت أو عَقَديٌّ بحت ، على أن الإسلام شريعة وعقيدة وسلوك ، امتزج ذلك كله امتزاجاً تاماً بِنِسَبٍ معيَّنة مضبوطة ، فكان إسلاماً . .

* * *

أسس وقواعد

العلاقات الزوجية في الإسلام

١ـ الأُسرة اصطلاحاً : (زوجان يلتقيان على كلمة الله تعالى وَحَسْبَ الشريعة على إنجاب الذرية الصالحة وإعفاف كلٌّ منهما صاحبه بما يرضي الله ورسوله) .

أما مسؤولية كل فرد من أفرادها ، فذلك فيما يلي :

أ ـ مسؤولية الزوج :

تتحدد مسؤولية الزوج في التالي :

١ـ حُسْن اختيار الزوجة ذات الدِّين من المَنْبِت الطيِّب ، وحسن سياستها ورعايتها .

٢ـ تعريف الزوج الزوجةَ بواجباتها ومطالبتها بحَسَب القوامية الزوجية الممنوحة للرجل شرعاً ، مع القيام بواجباته قَبْل المطالبة بواجباتها .

٣ـ حُسْن تربية الأولاد ، وتعليمهم ، وتزكية نفوسهم على مكارم الأخلاق .

٤ـ القيام على الأسرة بالكسب المتوسِّط المعتدل ، بلا إسراف ولا تبذير .

٥ـ الدفاع عن الأسرة ، والذود عنها ، وعن المرأة بالذات ، لأنها عِرْضُه .

٦ـ ألاّ يكون ليِّناً فيُعصر ولا يابساً فيُكسر ، بل يكون حكيماً ، وعليه أن يراقب بعين الحذر والفهم والإدراك ، وأن يكون قدوة حسنة لأهْله .

ب ـ مسؤولية الزوجة :

وتتحدد مسؤولية الزوجة في التالي :

١ـ القيام بواجباتها قبل المطالبة بحقوقها ، بعد حسن اختيارها لزوجها صاحب الدِّين والأمانة والخُلُق .

٢ـ تربية الأوْلاد التربية الصحيحة ديناً وخُلُقاً وأمانةً وعلماً وتهذيباً ، والسهر على ذلك ، والأخذ من راحتها لتقوم بالواجب العظيم .

٣ـ أن تكون قدوة حسنة لأولادها ليقتدوا بها .

٤ـ ألاّ تحاسِب زوجها ولا تسأله ولا تعاتبه ، بل تخفي ذلك كله في نفسها إن لاحظت تقصيراً منه ، ولا تبدي للأولاد شيئاً من ذلك كيلا تفسد تربيتهم ، وتبحث مع زوجها بالحكمة والإقناع سرّاً بينه وبينها ، فذلك أَجْدَى .

* * *

أما صلاحيات كلٍّ منهما وحدوده ، فصلاحية الزوج القوامية وهي : (وجوب طاعة الزوج على زوجته وجوباً شرعاً فيما لا معصية فيه) .

وصلاحية المرأة المطالبة بحقوقها الشرعية . وذلك عن طريق الأساليب المشروعة في الفقه الإسلامي من الاستعداء للقضاء ، إن فشل التراضي ، وذلك آخر الدواء .

ومن حقوق الزوج الهجر في المضاجع ، والتأديب بالحسنى ، أما حدود المرأة ، فهي الإشراف على تربية أولادها بموجب شرعي ، فإن لم تستطع مع زوجها العيش فلتطلب منه الطلاق بالخُلع ، أو من القاضي مع وجه معقول وعذر مقبول .

الواجبات والحقوق أو (أسس العلاقات الزوجية في الإسلام)

بعد أن قرر الإسلام الميل الطبيعي في الإنسان وسيلة لتشكيل الأسرة ، يقبل على تنظيم هذه الأُسْرة ، ويراعي في هذا التنظيم أيضاً كل ناحية من نواحي قانون الفطرة الإنسانية السليمة باقتران كامل ، وإنها لَدرجةٌ سامية من العدل والإنصاف ، تلك التي يلاحظها الإسلام في تعيين حقوق الرجل والمرأة ، فللمرأة من الحقوق مثل ما للرجل من حيث هي إنسان ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، ولكن الفضيلة النوعية بمعنى القوة والتقدم ، لا بمعنى الكرامة والتعزز ، تلك التي أعطاها الإسلام للرجل من حيث هو زوج ، اعترف الإسلام له بمقتضى الإنصاف ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . فبعد أن قرر الإسلام بين الرجل والمرأة علاقة الفاضل والمفضول بحسب ناموس الفطرة ، نَظَّم الأسرة على ما يأتي من القواعد .

أ ـ علاقة الزوجين بالله عز وجلّ :

تقوم علاقة الزوجين بالله عز وجل على إقامة حاكميته تعالى على أنفسهما ، وتطبيق شريعته على حياتهما المشتركة ، فَيَقْبَلان كل ما تقبله الشريعة ، ويرفضان كل ما ترفضه ، ويطيعان الله عز وجل في كل ما أمَر ، ويجتنبان كل ما نَهَى عنه سبحانه ، فيقيمان الصلاة ، ويؤتيان الزكاة ، ويَصومان رمضان ، ويحجان البيت إن استطاعا ، وتتجنب

المرأة عن الأجانب ، وعمّن لا تحل رؤيتهم لها ، وهكذا تكون الشريعة المطهَّرة هي المعيارَ لهما ، في كل ما يأخذانه ويتركانه ، دون العادات البالية ، والتقاليد الموروثة أو المستوردة .

ب ـ علاقة الزوجين كلّ منهما بالآخر :

هنالك حقوق وواجباتٌ مُتَرتِّبة لكل من الزوجين ، وعليهما . وهنالك أمور مشتركة :

١ـ حقوق الزوج وواجباته أربعة : القوامية ، وكتمان سره ، واحترامه ، والتأدب معه ، وحفظه في نفسها وماله وبيته . أما القوامية فالرجل قَوَّام على الأسرة ، أي حاكم عليها ، وراعيها ، ومراقب أخلاقها وشؤونها ، وهي بمعنى (وجوب طاعته فيما لا معصيةَ فيه) ، ففي حديث البخاري « لا طاعة لمن لم يطع الله ، ولا طاعة في معصية الله ، وإنما الطاعة بالمعروف » .

ومن حقوق الزوج على زوجته كتمان سره ، سواء أكان من أسراره الخاصة به أم كان من أسرار الزوجية ، وخيانة الزوجة لزوجها في ذلك معصية لله عز وجل .

وكذلك من حقوقه احترامه ، والتأدب معه ، ففي الحديث : « لو كان لأحد أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لبعلها لعظيم حقه عليها » أخرجه ابن كثير .

أما حفظه في نفسها وماله وبيته ، فذلك من أعظم الحقوق للزوج على زوجته . ففي الحديث : « إذا خرجت المرأة من بيتها وزوجها كارهٌ ، لعَنَها كل مَلَك في السماء ، وكلُّ شيءٍ مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع » رواه البخاري .

أما واجبات الزوج فالقيام بحقوق زوجته وأولاده ، وذلك من الحقوق المادية والمعنوية من طعام وشراب ومسكن وملبس بالمعروف ، وتأديب من وجب تأديبه وتعليم أسرته أمور دينهم ، وما إلى ذلك من رعاية واجبة ، والمُؤَيِّد لذلك الآية القرآنية [النساء/ ٣٤] .

٢ـ حقوق الزوجة وواجباتها : من حقوق الزوجة على زوجها الإنفاق عليها وعلى أولادها بالمعروف ، وترك تدبير المنزل إليها فهي ربة البيت ، وإذا كان على زوجها كسب الأموال ، فعليها إنفاق هذه الأموال لتدبير شؤون المنزل ، ففي الحديث : « المرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة » رواه أبو داود . فلا تجب عليها جمعة ولا جماعة ولا جهاد ، ولم يؤذن لها بالسفر إلا مع محارمها ، وصفوة القول أن دائرة عمل المرأة بيتها .

ومن حقوقها كل ما يدور حول عملها ، ومن واجباتها كل ما يسعد الزوج والأسرة في الدنيا والآخرة .

٣ـ وهناك حقوق مشتركة بين الزوجين ، وذلك مثل تحصين كلٍّ منهما الآخر في طاعة الله ومن حيث أمر الله ، وإصفاء كلٍّ منهما الآخر بالمحبة الصادقة ، وملاحظة كل منهما الآخر وعدم إيذائه قولاً وفعلاً ، والابتعاد عن المنغِّصات ، وعدم الغضب لأمور الدنيا الفانية ، بل لا يجوز الغضب إلا إذا انتُهكت محارم الله عز وجل ، ولم يرتدع ذلك المنتهِك لها بالحِكْمَة والموعظة الحسنة .

وليعلم كل منهما أن رباط الزوجية رباط مقدس ، وينبغي المحافظة عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

جـ ـ علاقة الزوجين بالأولاد :

ينبغي أن تكون علاقَة حُب وعطف وحنان وتربية وتهذيب بالقال والحال ، كما ينبغي على الرجل تعليم أولاده أمور دينهم بما يحفظ لهم آخرتهم ، وسعيه على عياله بما يحفظ دنياهم ، فينفق عليهم حتى يشتد أزْرُهم ويستغنوا عن النفقة ، وكذلك يأمرهم بالصلاة لسبع ، ويضربهم عليها لعشر ضرباً غير مبرِّح بيده ، ويفرِّق بينهم في المضاجع .

وعلى المرأة تنشئتهم على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وتأديبهم على التخلق بها ، وما إلى ذلك .

د ـ علاقة الزوجين بالأقارب من الطرفين :

وكذلك ينبغي على كلٍّ من الزوجين صلة أحمائه ومُوَادَّتُهم ولو قاطعوه ، والتأدب معهم واحترامهم ، لاسيما أَبَوْي كلٍّ من الزوجين والزوجة ، فاحترام كلٍّ منهما والديْ الآخر واجب عليه ، والأسلوب متروك للعرف العام .

هـ ـ علاقة الزوجين بالناس :

وأما علاقة الزوجين بالناس ، فينبغي أن تكون مُتَوَّجَةً بتاج الرضا والثناء بظهر الغيب من كلٍّ من الزوجين على زوجه ، وأن يكتم أسرار الزوجية كلٌّ منهما عن الناس ، لأن أسرارها مقدَّسة ، وألاّ يقبل كلٌّ منهما طعناً في زوجه من أحد من الناس ، بل يدافع كلٌّ منهما ما استطاع إلى ذلك سبيلاً عن الآخر ، ولو كان على خلاف معه ، وهكذا تصبح الزوجيَّة ، وقد رفرفت عليها السعادة والهناء ، ورضي الله عنهما ،

ورسوله والمؤمنون . كما ينبغي على الناس ألاّ يفسد أحد زوجةً على زوجها أو زوجاً على زوجته ، فذلك خراب ما بعده خراب ، فالحديث : « من أفسد امرأة على زوجها فليس هو منّا » . رواه أبو داود .

* * *

الإسلام وتحرير المرأة

مِمَّا لا ينكر أن الجنس الآخر ، ما خلقه الله وأوجده إلاّ ليكون مُتَمِّماً للجنس الأول ، وأن النساء شقائق الرجال ، لهن ما لهم وعليهن ما عليهم ، يشتركان في الحياة معاً ، لتحقيق أسرة صالحة تكون هي الثمرة الناضجة التي يقطفها المجتمع ، ولقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة ، فجعلها مَلِكَةً في بيتها وربَّةَ منزلها ، كما فرض عليها واجبات وحظر عليها الخروج من بيتها دون حاجة أو ضرورة . قال تعالى : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . ولِمَ الخروج وزوجها مُجْبَر على نفقتها ؟ بل لِمَ التزين للأجانب من الرجال ، وزوجها أَوْلَى بذلك منها وأحق ؟!

وليس معنى قولي هذا ألاّ تخرج المرأة أبداً ، فتظل محبوسة عن العلم ممنوعة عنه ، لا بل يحق لها الخروج إلى المدارس والجامعات ، لِتَنْهَل وتَعُلَّ من ينبوع العلم والمعرفة ، إنْ كانت عزباء ، ولكن بشرط الحجاب الإسلامي الكامل ، قال تعالى : ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب : ٥٩] . أما إنْ كانت متزوجة ، فلا يصح لها أن تخرج من بيتها إلا لحاجة ضرورية ، وكيف تخرج فتهمل واجب زوجها وتترك أطفالها إلى الخدم والجيران ؟!

وأما ما ذكر من قصة سيدنا شعيب صلوات الله عليه فذلك أن أب

البنتين كان شيخاً هِمّاً عجوزاً ، بدليل قوله تعالى على لسان الفتاتين : ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص : ٢٣] . وهل من المروءة والشهامة في شيءٍ ، أن يترك نبي الله شعيب ابنتيه تسقيان ، وهو قاعد في بيته يستطيع أن يكفيهما الأمر بنفسه ؟! وأما فاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنها ، فقد تُوفيت بعد أبيها بستة أشهر فقط وعلي رضي الله عنه قد بايع أبا بكر رضي الله عنه مع من بايع ، وهل كانت فاطمة بنت محمد سيدة نساء العالمين رضي الله عنها في يوم مثيرةً للفتن والثورات بين المسلمين لترضي زوجها علياً رضي الله عنه ، ولكن صدق الشاعر :

إذا ساء فعلُ المرء ساءتْ ظُنونه وصدَّق ما يعتادُه من تَوَهُّمِ

وأما السيدة عائشة رضي الله عنها ، فاجتهادٌ منها ، ما أقرها عليه أحد من الصحابة بل عاتبوها فيه ، والمجتهد من الصحابة إنْ أَخطأَ فله أجر واحد ، وإنْ أصاب فله أجران . .

وأما خروج النساء للقتال مع الرجال ، فلا يخفى أن النساء كُنَّ يخرجن وراء الرجال متستِّرات متحجبات بكامل حجابهن ، حتى إن خالد بن الوليد رضي الله عنه ظنّ السيدة خولة بنت الأزْور رضي الله عنها رجلاً ، ولم يعلم أنها أنثى إلا لَمَّا كَلَّمته .

وأما قضية التمريض وغيرها من الحجج فهي واهية ، لأن الضرورات في الشرع تبيح المحظورات ، والضرورات تُقَدَّر بقدرها والحاجات تُنَزَّل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات ، لذلك قُبِلَتْ شهادة المرأة الواحدة فيما لا يطلع عليه الرجال من أمور النساء . . . وكذلك يباح للمرأة التمريض وتدريس الإناث وخدمة المنازل ، بشرط الحجاب الإسلامي وعند الضرورة أو الحاجة العامة .

وأخيراً فلا بد للمرأة أن تنزع هذه الأفكار والأوهام من رأسها ، وأن

تلتفت إلى أولادها وزوجها ، لأن حكمة الله سبحانه البالغة ، اقتضت أن يشتغل كلٌّ بما يعنيه ، فالأنوثة لها حقها والرجولة لها حقها ، ولا يجوز أن يتعدَّى كلٌّ من الفريقين على عمل الآخر ، قال تعالى :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

[النساء : ٣٤] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[1] [البقرة : ٢٢٨] .

* * *

(١) انظر العدد / ٧٣٠٢/ ـ ٧/ ٥/ ١٩٦١ من جريدة الأيام الدمشقية رداً على مقال لامرأة ردت على أحد علماء دمشق آنئذٍ .

أضواء على آية من آل عمران
ذات قضية إسلامية كبرى

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

[آل عمران : ٢٨] .

١ـ وجه الربط :

نَبَّه الله المؤمنين إلى أنه لا ينبغي أن يُوالوا أعداءه أو يستظهروا بهم لقرابة أو صداقة قديمة ، بعد أن بَيَّن لهم أنه واهب الملك المعزّ المذل القادر على جميع الأشياء في الدنيا والآخرة .

٢ـ سبب النزول :

في سبب نزول هذه الآية قولان أرجحهما :

١ـ نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يُوالون رجالاً من اليهود ، فينصحهم المسلمون باجتنابهم فأَبَوْا .

٢ـ ونزلت في عُبَادةَ بن الصامت ، له حلفاء من اليهود أراد أن يستظهر بهم يوم الأحزاب فنزلت .

٣ـ المفردات :

لا : ناهية فالفعل مجزوم ، أو نافية على قراءة رفع (يتَّخذ) فالفعل مرفوع والجملة خبرية بمعنى النهي .

أولياء : جمع وليّ ؛ وهو الناصر والمعين .

من دون المؤمنين : حال من الفاعل (المؤمنون) أي متجاوزين المؤمنين إلى الكفار استقلالاً أو اشتراكاً ، فالظرف لا مفهوم له ، لأنه لبيان الواقع الحاصل حال نزول الآية .

ومن يفعل ذلك : أي الاتخاذ وعَبَّر بالفعل للاختصار أو لاستهجان الفعل فلا يذكر .

فليس من الله في شيء : جواب الشرط ، وفي الكلام حذف مضاف ، أي فليس من ولاية الله في شيء ، أو من دين الله ، وتنوين شيءٍ للتحقير ، لأن موالاة المتضادين لا تكاد توجد .

إلا أن تتقوا : استثناء مُفرَّغ من أعم الأحوال ، والكامل فيه (لا تتخذوا) فالمعنى (فلا تتخذوهم أولياءَ في حال من الأحوال إلا حال اتِّقائكم) وقيل استثناء مفرَّغ من المفعول لأجله ، فالمعنى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء لشيء من الأشياء إلا للتقية) .

منهم : من جهتهم .

تقاة : مفعول أيْ (شيئاً يتقى منه) فالجار والمجرور حال من تقاة حيث تقوم عليها . (والمعنى إلا أن تتقوا شيئاً يتقى منه حاصلاً من جهتهم كالقتل وسلب المال) ، أو تقاة بمعنى (اتِّقاء) فتكون مفعولاً مطلقاً و(منهم) متعلق به في مكان المفعول الأول ، والمفعول الثاني محذوف

للعلم به ، وعُدِّي بِمن لأنه بمعنى (خاف) ، فالمعنى (إلا أن تخافوا ضرراً خوفاً) .

ويحذركم الله نفسه : أي عقاب نفسه ، وفي ذلك تهديد عظيم مُشْعِرٌ بتناهي الاتخاذ في القبح ، حيث ربط التحذير بنفسه لنفي احتمال صدوره من غيره .

وإلى الله المصير : المَرْجِع ، وإظهار كلمة الجلالة (الله) لتربية المهابة في النفوس ، والجملة مقرِّرة لمضمون ما قبلها .

٤ـ المعنى العام للآية :

لا يركن المؤمنون إلى الكفار ويستعينوا بهم لقرابة أو محبة ، مع اعتقاد بطلان دينهم ، فذلك منهيٌّ عنه ، لأن الموالاة قد تجر إلى استحسان طريقتهم ، وقد نزلت بهذا المعنى آيات كثيرةٌ في الكتاب العزيز ، وأما الموالاة بمعنى المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر مع عدم الرضا عن حالهم ، فذلك غير منهي عنه ، وقد ربط سبحانه العقاب بنفسه لأنّه حُذِفَ ، وقيل (ويحذِّركم الله) فلا يفيد صدور العقاب من الله ، بل يحتمل كونه منه تعالى وكونه من غيره ، فلما قال (نفسَه) عُلِمَ أنه صادر منه تعالى ، وذلك أعظم أنواع العقاب ، لكونه تعالى قادراً على مالا نهاية له ، ولا قدرة لأحد على رفعه أو منعه مما أراد .

٥ـ فقه الآية :

١ـ في هذه الآية دليل على عدم جواز الاستعانة بالكفار في الغزو ، وإليه ذهب بعض المالكية ، واستدلوا بالآية وبحديث عائشة الآتي ، وقالت الحنفية والشافعية بالجواز ، وأنه يسهم لهم بالغنيمة ، شريطة أن

تكون الاستعانة على قتال المشركين لا البُغاة ، وما ورد عن عائشة رضي الله عنها (مِنْ رَدّ النبي صلوات الله عليه لرجل مشرك كان ذا جرأة ونجدة ، أراد أن يحارب مع النبي صلوات الله عليه يوم بدر ، وقال له : ارجع فلن أستعين بمشرك) فمنسوخ بدليل استعانته صلوات الله عليه بيهود قَيْنُقاع وقَسْمه لهم ، واستعانته بصفوان بن أمية في هوازن ، وذكر بعض الفقهاء أن جواز الاستعانة بِشَرْطَيْ الحاجة والوثوق ، وبغيرهما لا يجوز ، وهو الراجح لديّ ، وعلى ذلك يُحْمَل خبر السيدة عائشة والسبب الثاني للنزول ، ويحصل به الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز .

واليوم يحسن بنا اشتراط شرط ثالث وهو ألاّ تُخِلَّ الاستعانة بهم بسيادة الأمة الإسلامية أو بكرامتها أو بعقيدتها ، أخذاً مما سبق[1] .

ويستدل بالآية على أن المشركين لا يجوز جعلهم عمالاً ولا خدماً ، ولا يجوز توقيرهم في المجالس ، ولا القيام لهم عند قدومهم تعظيماً .

٢ـ وفي الآية مشروعية التُّقْيَة وهي (المحافظة على النفس أو العِرْض أو المال من شر الأعداء) والتُّقْيَةُ قسمان باعتبار اختلاف أنواع العداوة :

أـ القسم الأول باعتبار كون الاختلاف في الدين سبباً لعدوانه ، وهو كل مؤمن وُجد في مكان لا يقدر فيه على إظهار دينه ، وهذا يجب عليه الهجرة من ذلك المكان إلى مكان يستطيع فيه إظهار دينه فيه ، شريطة ألاّ يكون من الصبيان أو النساء أو العجَزة ، فهؤلاء قد رخَّص الله تعالى لهم ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ [النساء : ٩٧-٩٨] . فإنْ كان من

---

(١) والاشتراط لهذه الشروط الثلاثة هو القول الراجح لديَّ والله أعلم .

المستضعفين ، وكان التخويف بالقتل ونحوه ممن يُظن منهم أنهم يفعلون ما خَوَّفوا به ، جاز المكث والموافقة ظاهراً بقدر الضرورة ، مع السعي في حيلة للخروج والفرار بدينهِ . والموافقة حينئذٍ رخصةٌ ، وإظهار ما في قلبه عزيمة ، فلو مات فهو شهيد قطعاً[1] .

* * *

(١) وبعد ؛ فهنالك فرق دقيق جداً بين النفاق والمدارة كالفرق بين الزِّنى والزواج وبين الزندقة والإيمان ، دقيق لكنه كبير ، هو أن النفاق كذب وتمويه لجلب مصلحة دنيوية ، بينما المداراة نوع موافقة شكلية لدرء خطر محيق أو أذى محدق بالنفس أو العِرض أو الدين ، وهي من الحكمة المطلوبة شرعاً لكن بشروطها وضوابطها المعتبرة عند العلماء ، وهي رخصة في وقت الفتنة ولدى تحقيق تلك الشروط والضوابط بل ربما كانت واجباً مصلحةً (رخصة وإسقاط) إذا انعكس الضرر على الأمة . ودليل ذلك حديث السيدة عائشة في البخاري في باب المداراة ، بينما النفاق مرفوض شرعاً وعقلاً معاقَب عليه ومحرم بل هو من الكبائر والله تعالى أعلم .

أضواء على الهجرة النبوية

. . . وأَرسلت الشمس أشعتها الذهبية على الأرض ، مُؤْذِنَة بالغيب ، وَوَلَّى النهار مسرعاً والأرض تكاد تَمَيَّز غيظاً من وهج حرارته ، وأقبل الليل يلف الصحراء بظلامه الرهيب ، فلا تكاد تسمع إلا حُدَاءَ الإبل على جَرْسٍ منتظَم من هنا وهناك. . . ولا ترى إلا قوافل تسير على هدىً من نجوم السماء. . يتخلَّل ذاك نسائمُ عَبِقَةٌ تَهُبُّ مُحَمَّلَةً برائحة عطرة من بعض زهور الرُّبى ونباتها ، ويفوح عبيرها على الرَّكْب فَتَتَرَوَّح به قلوب ، لطالما كانت ظمأى إلى مَعين الحب والأشواق. . .

وفي سكون ذلك الليل الرَّهيب ، وفي الطريق إلى يَثْرب ، كانت أصواتٌ غضة بريئة تتهادى في سكون الليل ، لتنشر في تلك الصحراء نغمةٌ عُلْويَّة ما عرفتها تلك الصحراء من قبل ، نَغْمةٌ ذات جَرْسٍ حُلْوٍ ، ما عرَفَت الدنيا أجملَ منه ولا أحلى ، وكانت تلك النفحة على طَرافتها ، تستأثر بالأسماع وتملك القلوب لأول وهلة ، وكان ذلك الرَّكْب قادماً من مكة البلد الحرام ، يَؤُمُّ يثرب حاملاً معه قبساً من الهدى وجَذْوة من النور واليقين. . .

القافلة تسير مسرعة نحو يثرب رَدْحاً من الليل. . . والرياح تهب ندية رقيقة ، والأودية المغطاة بالشوك والعَوْسَج ، تضيق أحياناً وتنبسط أحياناً أخرى ، والرَّكْبُ يَحْدُوهم الشوقُ والحنينُ إلى مَلاَعبِ الصبا ، ومعاهدِ

الطفولة... وفي حنايا صدورهم بوارقُ إيمان جديد ، وعلى ملامح وجوههم أضواءُ دين جديد ، وفي لَمَحَاتِ أعينهم تصميمٌ على عملِ شيءٍ جديد ، إنَّ ذلك الرَّكْبَ لَعلى مسيرة يوم واحد من يثرب ، فَلْيَجِدَّ السير ولْيَحُثَّ الخُطَا ، أولئك الذين طال بهم الأمد عن وطنهم ، فهم إليه لعلى أحرَّ من جَمْرِ الغَضَى..

وامتدتْ أشعة القمر الذهبية تغشِّي وجه الأرض برداء موشّىً لَمَّاع ، وحادي الأمل يحدو القوم للإسراع ، وظهرت مشارف يثرب ، تلك البلدة الهادئة النائمة بين حَرَّتين ، تكتنفانها كذراعي أم رؤوم تحتضن وليدها الوحيد ، وَتَصَايَحَ الرجال يُهَنِّىء بعضُهم بعضاً بالوصول ، وفي حنايا ضلوعهم نور لم يعهدوه من قبلُ ، نورُ أملٍ باسمٍ مَرْجُوٍّ... وما هي إلا لحظات حتى أُنيخت العيس ، ومضى الرَّكْب يشق طريقه وَسْطَ سِكك يثرب ، وعلى جانبيْ الطريق نسوة يزغردن وبُنيَّاتٌ يَلْعَبْنَ ، ورجال يستقبلون إخوانهم حجّاج بيت الله ، وعلى شفاههم ابتسامة عريضة ملؤها الفرح والرجاء.. ولَشُدَّ ما كانت دهشةُ القوم عظيمةً ، حين رأوا في مقدِّمة هؤلاء الحجاج العائدين رَجُلاً وَسِيماً ، لكنه فيه عزم الرجال ، وصلابة الإيمان ، وقوة الحق وبأسُ الأبطال الميامين..!!

فَمَنْ هو ذلك الضَّيفُ ، وما مجيئه إلى يثرب ؟! وما صلته بهؤلاء القوم ؟ تلك أسئلة لا شك أنها ثارت في نفوس اليثربيِّين الذين خرجوا لاستقبال إخوانهم من الحجيج ، وشغلتْ أفكارَهم ، ولكن لا يليق بكرم أهل يثرب وَجُودِهم أن يسألوا ضيفهم إلى حين...

وازدانت بيوتُ المدينة بأهلها ، وانتشر الفرح والسرور في جَنَباتها ، وازدحم الطريق إلى ثَنِيَّة الوداع بالشباب والرجال والبُنيَّات والأطفال ، وتعَالَم أهل المدينة فيما بعد أن ضيفهم العظيم هو النبي الذي آمن به

زعماءُ الأوس والخزرج ، فأقبلوا يُسلِّمون عليه وهم يهتفون بالدفوف الأهازيج ومنها :

طلـــع البـــدر علينـــا   مـــن ثَنيَّـــات الـــوداع
وجـــب الشكـــر علينـــا   مـــادعـــا لله داعـــي

إنه محمد بن عبد الله القرشي المكي ، ها هو يُقْبِل بوجهه الأزهر ، وعلى يمينه أبو بكر يُظِلُّه من الشمس ببردته ، ها هو محمد ، ها هو النبي الذي تَحَدَّثت عنه التوراة والإنجيل ، وكان اليهود يتعالون على أهل يثرب العَرَبِ به ، ويقولون لهم لئن أدركناه لَنَقْتُلَنَّكم به قتل عادٍ وإرَم ، فما بالنا نحن ؟ ولماذا لا نسبق اليهود إليه فنؤمنَ به ؟ فهو من جِلْدتنا ونسبه فينا معروف في الذُّؤابة من الشرف والسيادة ، فتعالَوْا نَسْعَدْ به ، وأقبلوا زَرافاتٍ ووُحْداناً يدخلون في الإسلام على يد النبي ﷺ ، بعد أيام من وصوله المدينة ، التي لم تَعُدْ تُعْرَف إلا بهذا الاسم بعد اليوم .

. . . لقد طُويتْ صفحة من التاريخ بالهجرة وفُتحت صفحة جديدة ، طُويتْ صفحة الباطل وطويت معه دولة الطاغوت ، وفُتحت صفحة العدل والمساواة والحق وأولُ مظهر لهذا وعنوانه : المسجد الذي بَنَاه رسول الله ﷺ بيده وأيدي أصحابه ، فلقد كان بناء المسجد النبوي في حقيقة الأمر بناءَ أساسِ الدولة المتين ، وكلُّ ما حدث بعد ذلك فرع عنه ، قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠ـ٤١] .

* * *

المحبة والاتِّباع

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

بهذه الآية الكريمة أستهل بحثي هذا ، وأنا أعلم أن هنالك من الناس من أَضَلَّ الحقيقةَ ، حين ذهب يزعم للناس أن المحبة لا تنعقد أبداً بين عبد مخلوق وخالقه ، بل هي إنْ ذكرت في التنزيل أو السُّنَّة ، فهي مَجَاز وليست حقيقةً ، إذْ يَستبعد هؤلاء كيف يحب العبد الضعيف المُحْدَث الفاني ربّاً قوياً خالقاً ؟! فَأَوَّلُوها بالاتِّباع ، وقالوا حيثما وردت المحبة في النصوص الإسلامية فهي الاتِّباع لا غير . . .

وفات هؤلاء السَّطْحيين في التفكير ، غَفَر الله لي ولهم ، أن الآية الكريمة تنفي ذلك بمنطوقها ومفهومها ، وكذلك قواعدُ الاستنباط وصريحُ القرآن والسُّنَّة ، وإلاّ لَصار معنى هذه الآية : (قُلْ إنْ كنتُم تتَّبعونَ الله فاتَّبعُوني . . .) وعلى تقدير (رسول) مضافاً محذوفاً يكون المعنى : (قُل إنْ كنتُم تتَّبعون رسولَ الله وهو أَنا فاتَّبعوني)!! وكِلاَ التأويلين باطل كما هو ظاهر لكل ذي نظر صحيح . .

ثم من قواعد الاستنباط أنه لا يُصار إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة أو بُعْدِ تصورها ، فهل استحال أن يُحِبَّ العبد ربَّه ؟ ولماذا ؟ وما هو دليل هذه الاستحالة ؟! هل انحصر الحب كلُّه في الحب الشَّهَوي أو الجَسَدي أو فيما يُرى وما يُحَسُّ وما يُلْمَسُ حتى يصح كلامهُم ؟ أَلاَ يحب المرءُ

مكارمَ الأخلاق ؟ أَلاَ يُحب الإنسانُ المعاني السامية والمبادىء الرفيعةَ والمُثُلَ العليا ؟! إن الإنسان مادي لا يشعر بالحب إلا للمادة ، ولا يتسع مودة إلا للكثائف ؟! شأنهُ شأنُ الأنعام ؟! وهل دفع الصحابةَ رضوان الله عليهم إلى الاتِّباع وحَفَزَهم إلى الجهاد ، وفتَح لهم مشارق الأرض ومغاربها إلا محبةُ الله و رسوله ؟ وهل كان في قلبهم غير هذه المحبة يعتلج أُوارها ؟ ويضرم لهيبُها ، حتى تصبح مما يقذفونها على الباطل وأتْباعه ؟ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

الحق أن المحبة شيء والاتباع شيء آخر ، لكنهما متلازمان تَلازُمَ الثمرة للشَّجَرة ، والنتيجة للمقدِّمات ، فالمحبة تُثْمِر الاتِّباع وتُنْتِجُه إذا صَدَقت في قلب صاحبها ، وصدق صاحبُها بها ، ومن ذلك قول سيدنا علي رضي الله عنه وكرَّم وجهه : (اللهم ارزقني حُبَّكَ وحُبَّ نبيِّك ، واجعل حبَّك وحبّه في قلبي أَحَبّ من الماء البارد على الظمأ) .

وفي حديث الصحيحين : « ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما . . . » الحديثَ ، وكذلك حديث البخاري : « ولا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومُؤَيِّداً » .

والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فالمحبة حالة شريفة شهد الحقُّ سبحانه بها للعبد ، وأخبر عن محبته للعبد ، قال القشيري : (وأما محبة العبد لله فحالة يجدها مَنْ قلبُه تَلَطَّف عن العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم له ، وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه ، والاهتياج إليه وعدم القرار دونه ، ووجود الاستئناس بدوام

ذكره له بقلبه) اهـ . الرسالة القشيرية ج/ ٢/ ص/ ٦١٢/ .

وَفسَّر القشيري محبة الله لعبده : (إرادته لأنْ يخصَّه بالقُرْبة والأحوال العلية) ج/ ٢/ ص/ ٦١١/ . وجعلها أخص من الرحمة التي فَسَّرها بأنها (إرادة الله تعالى لأن يُوصِل إلى العبد الثواب والإنعام) كما أن الرحمة أخص من الإرادة . ج/ ٢/ ص/ ٦١١/ وما قبلها .

ومن أجمل ما قال الربَّانيُّون في المحبة ما رواه أحدهم[١] قال : (جَرَتْ مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم (الحج) فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سنّاً ، فقالوا له : هات ما عندك يا عراقيُّ .

فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال : [عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبَه أنوارُ هيبته ، وصفا شِربُه من كأس وُدِّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإنْ تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله]) . . .

فبكى الشيوخ وقالوا : (ما على هذا مزيد ، جَبَرك الله يا تاج العارفين) . .

ومن حكاياتهم ما رواه الآخر منهم[٢] ، قال : (رأيت في النوم كأن يوم القيامة قد قامت وشَخْص قائم تحت العرش فيقول الحق سبحانه : يا ملائكتي مَنْ هذا ؟ فقالوا : الله أعلم ، فقال : هذا معروف الكرخي سَكِرَ من حبي فلا يفيق إلا بلقائي) وفي رواية أخرى : (هذا معروف خرج من الدنيا مشتاقاً إلى الله فأباح له الله عز وجل النظر إليه) .

---

(١) الرَّباني الصالح أبو بكر الكتاني من الرعيل الأول .

(٢) هو الحسين الأنصاري .

والله تعالى يقول : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ﴾

[العنكبوت : ٥] .

وهكذا يكون المِعْيار الحقيقي الصادق للمحبة من العبد لربه : (شِدَّةُ الشوق إليه وحبُّ لقائه مع حالة الاستقامة) . قال تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه : ٨٤] . أي شوقاً إليك . وكان من روائع دعائه ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه النَّسائي عن عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعاً : « اللهم بِعلمك الغيب ، وقدرتكَ على الخَلْق أحْيني ما علمتَ الحياة خيراً ليْ ، وتوفَّني ما علمتَ الوفاة خيراً ليْ ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك القصد في الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا يَنْفَد ، وقرةَ عينٍ لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وبَرْد العيش بعد الموت ، وأسألك النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقاً إلى لقائك في غير ضُرٍّ أو مضرة ، ولا فتنةٍ مُضِلَّة . اللهم زَيِّنا بزينة الإيمان ، اللهم اجعلنا هداةً مهتدين » .

وبعد ،

فلا بد لنا اليوم لكي يتحقق الاتِّباع الكامل لشريعة رسول الله ﷺ ولأخلاقه وشمائله ، لا بد لنا من شَحْن القلوب بشُحْنة قوية من المحبة المُحْرِقة المتوهِّجة لله ولرسوله صلوات الله عليه ، لا مندوحةَ لنا عن حبٍّ كحُب الصحابة ، وشوق كشوقهم وتَفَانٍ كتفانيهم ، وإلا فما دام الإسلام كلاماً يقال وصحفاً تُكْتَبُ وحِبْراً على قرطاس ، فلا أمَلَ لنا في نهضة إسلامية ، ولا في فتح مبين . . .

ليست أزمتُنا اليوم أزمةَ عِلْمٍ بِقَدْرِ ما هي أزمةُ محبة لله وشوق إليه . .

أجَلْ ، إنَّ هذا الحب وَحْدَه هو الذي هَزَّ العروش وَقوَّض حضارات زائفة ، وأقام مكانها حضاراتٍ إسلامية راقية ، إن الحب وحده هو الذي دفع الصحابة إلى التضحية والإيثار ، والزهد في الدنيا ومتاعها ، والركضِ خلف رضاء الله سبحانه .

أجَلْ ، هو الذي دفع خالداً بن الوليد رضي الله عنه يوم عَزَلَه عمر رضي الله عنهما كيلا يُفْتَنَ الناسُ به ، وكان عزله لمصلحة الأمة ، وقف خالد يقول : (وما ضَرَّني ؟ كنت أُقاتل أَميراً واليوم أُقاتل جندياً) . . .

المحبة ذلك الوَقُود الأعظم الذي يُحَوِّل الشخصيات القَزَمةَ إلى عملاقة ، ويصنع القيادات والبطولات . . .

لقد امتلأت الدنيا كتباً وعلماً وفقهاً ودرساً ومحاضرات ، ولم يحرِّك ذلك ساكناً . .

إننا محتاجون للعلم لأنه إمام العمل وهو تابعه ، ولكن ما قيمة العِلْم والقراطيس والكتب ، دُون أن تكون هناك النفوس الكبيرة التي تحملها ، فتحوِّلها إلى عَظَمات ؟!

أجل ، أيها الناس إنَّ السلوك الصافي المصفَّى السائر على هدى الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح ، ذلك الذي يشحن النفوس بالمحبة الصادقة ويثمر الاتباع الصحيح على يد رجاله من العلماء بالله ، الذين زادوا على علومهم الكسبية علوماً وهبية منحها الله إياهم ، كما ورد في الخبر : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » . هذا اليوم هو سر انطلاق المسلمين ويقظتهم ، وزهدهم في الدنيا ورغبتهم بما عند الله تعالى ، وهو التجارة الرابحة ، سَمِّه إن شئت إحساناً ، أو تربية روحية أو تزكية ، فنحن لا تهمنا الاصطلاحات والأسماء ، بل يهمنا الجوهر ، وحين نقصد السلوك ، نقصد الخُلُقي منه والوجداني فنحن مع المعاملة .

فالذي يهمنا اليوم هو إنقاذ نفوسنا وَمن حولنا من الشباب ، من براثين الشهوات الموبقات ، أو شياطين الإنس والجن ، وذلك عن طريق هذه التجارة الرابحة ألاَ وهي حب الله ورسوله .

رُوي عن سحنون المُحِبّ أنه قال : (ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة ، وهم مع الله تعالى لأن النبي ﷺ قال : « المرء مع مَنْ أحب ») عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو حديث صحيح أخرجه الترمذي .

وما أَحْلَى ما حدثنا القشيري في رسالته قال : (دخل ابن عطاء[1] على الجنيد وهو يجود بنفسه ، فسَلَّم فأبطأ في الجواب ، ثم رَدَّ ، وقال اعذروني فلقد كنت في وِرْدي ، ثم مات) وصدق الله تعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤] .

* * *

(١) هو ابن عطاء المتقدِّم من رجال الرسالة القشيرية ، وليس ابن عطاء السكندري المتأخر . فليُعلم .

مَنْهَجُ التعليم
في الفقه الحَضَاريِّ في الإسلام
بين التَّحَمُّل والأداء

(١)
الأهلية الذاتية لأستاذ العلوم الإسلامية والعربية في السلف الصالح

يتكوَّن هذا البحث من مدخل ومقصدين ، ودونك التفصيل :

مدخل إلى البحث :

المقصود بالأهلية الذاتية : (تلك الأمور التي إن توفّرت في إنسان ، كان أهلاً للأستاذية في العلوم الإسلامية والعربية) .

وقيدنا بالذاتية ، ليخرج التعيينُ والترشيحُ والشهادة الجامعية وما شابه ذلك .

والمقصود بالسلف الصالح هنا مَنْ كان من طبقة أشياخنا فمن قبلهم ، إلى رسول الله صلوات الله عليه ، ولعله اصطلاح خاص بنا في هذا البحث فقط ، لأن الاصطلاح العام لهذه العبارة هو من قبل الثلاثمئة للهجرة ، كما في الباجوري شرح الجوهرة .

والمقصود بالأستاذ : هو الذي بلغ درجة الشيخ في الاصطلاح القديم ، لأن طالب العلم بعامة ، إما أن يكون تلميذاً ، فإذا ارتقى صار طالباً ، فإذا ارتقى صار معيداً ، وهو ما يُشبه درجة (الماجستير) ، وإذا ارتقى صار شيخاً وهو ما يشبه درجة الدكتوراه في عصرنا .

وقد عرَّبت مجامعُ عربية درجة الماجستير إلى (التبريز) والدكتوراه إلى (الأستاذية) والدكتور إلى (علِّيم) .

* * *

المقصد الأول

ضوابط الأهلية الذاتية للتحمُّل (توقيفٌ وتوفيق)

أ ـ أما ضوابط الأهلية الذاتية للتحمل ، فهي سبعة ضوابط فيما أرى :

١ ـ الضابط الأول : قراءة القرآن أولاً مرة على شيخ بالتلقي حاضراً بالتجويد في قراءة من القراءات ، ثم حفظ القرآن غيباً بموجَب تلك القراءة ، وأكثر العلماء من أتقن جمع القراءات مع الروايات على يد مقرىء متقن جامع ، وكان أمراً معروفاً .

وكانوا يجيزون طالب العلم إذا أتقن وجمع ، ولكنهم لا يجيزونه لو حفظ أو قرأ برواية واحدة حَسَب عُرفهم آنذاك .

٢ ـ حفظ متون العلم غيباً منذ الصغر ، مع حفظ تجريد البخاري ومختصر مسلم للمنذري ، مع حفظ أشعار العرب وأيامهم .

٣ ـ قراءة العلوم والفنون على شيخ مجاز موثوق بالمثافنة ، بحيث يشارك طالب العلم بالعلوم كلها ، يدرس بداياتها ثم أواسطها ثم نهاياتها كأنه يريد أن يتخصص ، ولكنه لا يتفرغ لها بل يتجاوزها إلى الفن الذي

يريد أن يُعرف به ويتخصص فيه ، والرحلة من أجل ذلك إلى الشيوخ ، مع تقييد العلم بالكتاب وحفظ ما علَّقه غيباً وحفظ كتابه كذلك إلى حين الأداءِ .

٤ـ الارتباط بالسند ، فقديماً كانوا يتواصون : (لا تأخذ العلم من صَحفي ولا القرآن من مصحفي) والحرص على الإجازة والإسناد الذي هو شرف هذه الأمة وإحدى خصائصها (الإسناد والأنساب والإعراب) فمن لا شيوخ له فهو (لقيط) ولولا الإسناد لقال في دين الله من شاء ما شاء ، فالإسناد من الدين . وكانوا لا يستجيزون الوجادة ولا المناولة إذا صحت الإجازة ، لأن الإجازة أقوى وأفضل بل هو المطلوب ، فكم ارتحلوا من أجل الإسناد العالي والإجازة العالمية أو من شيخ موثوق كبير . وقد كتب الخطيب البغدادي كتاباً في الرحلة في طلب الحديث وقال أحدهم نظماً فيه :

ارحلْ إلى من يستحق الرحلةْ خَلْفَ الفرات أو وراء الدجلةْ
وقلْ له من جئتك لبيكا فإنه محتَّم عليكا

وما قصة الشيخ عبد الحكيم الأفغاني نزيل دمشق ودفينها في الإجازة عنكم ببعيد .

٥ـ كتابة بحث التخرج على يد الشيخ بشكل علمي ، ثم عرضه على الشيخ لينال الإجازة به ، فأكثر الرسائل التي أُلفت كانت بحوث تخرج .

٦ـ العناية بالمنهج العلمي الذي وضعه العلماء العرب المسلمون : (إذا كنتَ ناقلاً فالصحة ، وإن كنتَ مدعياً فالدليل) فالتحقيق العلمي للمسائل والتوثق من الدليل هو شأن طالب العلم .

٧ـ العناية بفنّيْ المنطق والمناظرة ودرس ضوابطهما ، لأنهما عُدَّة طالب العلم .

ب ـ مؤهلات التوفيق لطالب العلم في طلبه :

١ـ الإخلاص في التعلم والتقوى والقدوة الصالحة .

٢ـ أدب التعلم (الشجاعة الأدبية) وقول مع الحكمة والرفق .

٣ـ خدمة الأستاذ والدعاء له والاعتراف بفضله في حياته وبعد مماته ، قالت عاتكة أخت حماد بن سلمة : (مكث أبو حنيفة بباب حماد يشتري لنا بقلنا ويجلب لنا لبننا ثمانية عشر عاماً) وخدم حماد إبراهيم كذلك هذه المدة . وما قصة الزنبيل عنكم ببعيد .

وقال أبو حنيفة : (ما تركت الدعاء لحماد بعْد كلِّ صلاة) .

٤ـ التواضع للأستاذ ولمن هو في درجته من العلماء ، وتوقير العلم وأهله وترك الدعوى .

٥ـ الأخذ بمرتبة الاتّباع وهو أخذ الحكم بدليله والرجوع إلى الحق دائماً فهو فضيلة .

٦ـ حفظ الوقت من الضَّياع ، وقد ألَّف بعض المعاصرين كُتباً في قيمة الوقت ، وللعلماء قصص غريبة في هذا الشأن ، وآخر من رأيتهم والدنا رحمه الله .

٧ـ العمل بعلمه حتى يبارك الله له به : (من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم وبارك له في علمه حتى يدخله الجنة) .

* * *

المقصد الثاني

ضوابط الأهلية الذاتية في مرحلة الأداء :

أخلاق الأستاذ

١ـ خفض الجناح للطلبة ورحمتهم وابتغاء الخير لهم .

٢ـ نشر العلم وإنفاقه لله ، فهو زكاته (كل شيء ينقص بالإنفاق إلا العِلْمَ فإنه يزداد) .

٣ـ الرجوع إلى الحق مع خصمه إذا ظهرت له أماراته ، فيُنصف الناس من نفسه ، فالحق رائده .

٤ـ التواضع لزملائه من العلماء ومعرفة أقدارهم والدعاء لمن خالفه وتطهير قلبه من الحسد والكِبْر وأمراض النفوس .

٥ـ التوسط والاعتدال دائماً ، فالوسط معظَم الشريعة وأم الكتاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

٦ـ أمانة العلم وتوثيقه وصحةُ الغزو ودقة النقل بما له وما عليه ، وعدم الانتصار للنفس بل للحق ولو على لسان غيره .

٧ـ الاعتراف لمن سبقه بالفضل ولمن انتفع به أو منه ، والدعاء له بظهر الغيب وأزيد أخيراً كلمةً جامعةً مانعةً (الربانية) قال تعالى : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران : ٨٠] .

* * *

(٢)

أثر التربية الإسلامية في سلوك الطالب

يقول الله في كتابه المجيد : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾

[البقرة : ٢٨٢] .

من هذه الآية الكريمة في التنزيل ، ننطلق لنتعرف حقيقة التقوى التي يصاحبها دائماً التعليم من الله عز وجل مصاحبةَ الإجابة للدعاء ، والمغفرة للتوبة ، والرزق للسعي ، حتى كأن التقوى هي السبب الرئيس في تعليم الله تعالى للعبد .

فليست هذه التقوى إلا السلوك الصحيحَ الذي رسمه الإسلام لطالب العلم الذي يُعَدُّ ليكون معلِّماً ، وإن شئنا سمينا هذا السلوك الصحيح السويَّ التربية الإسلامية باصطلاح العصر ، ولا مُشاحةَ في الاصطلاح .

والذي أراه أن هذه التقوى أو التربية الصحيحة ليست إلا ذلك الرادع الذاتي في قلب طالب العلم المؤمن وضميره ، أو المراقبة الذاتية التي وَضَعَها الإسلام في نفوس أتباعه من الدعاة إلى الله في سلفنا الخير ، من الرعيل الأول ، بحيث لا يحتاج المرء منهم إلى مُراقب من خارج ذاته ، يضبط له طريقة ويرسم له هدفه ويحفزه عليه ، بل إن وجدان هذا الإنسان ومصباح قلبه هو ذلك الرقيب لا غير .

فإذا راقب الإنسان ربه عز وجل لا سيما طالبَ العلم ، وخاف مقام ربه عز وجل ، وامتلأت نفسه بالخشْية الخالصة ، والحُرقة اللاهبة ، أحرق شبابه سعياً على صراط الله ، وتوقَّد تَوقُّد الجمر ، وانبعث كالشهاب في سبيل مرضاة الله سبحانه لا يُبالي . فهان عليه وقته وماله

ونفسه ، لما يعلم من رضوان الله عليه ، وهذا سرّ عظمات علماء السلف الصالح من علماء الآخرة رضوان الله عليهم حيث كانوا محتسبين أجورهم عند الله سبحانه ، يؤلِّفون ويصنِّفون ويدرسون ويدرِّسون ، ويدعون إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ليلَهم ونهارهم ، فهم دائماً جُنْد في جيش الإسلام العظيم ، لا يريدون على ذلك جزاءً من الناس ولا شكوراً .

والذي يهمنا في هذا اليوم أثر هذا السلوك السويّ في سلوك طالب العلم بعامة ، وطالب العلوم الإسلامية بخاصة ، الذي سيصبح في قادمات الأيام معلِّماً ومربياً للأجيال القادمة .

إنَّ أول أثر ينعكس لهذه التربية على سلوك الطالب هو : الإخلاص في دراسته وطلبه للعلم ، الإخلاص في تعامله مع الله ، وفي تعامله مع الناس بما يحقق له مرتبة العبودية لله عز وجل ، فلا يسترقُّه بعد ذلك شيء من متاع الدنيا وشؤونها الفانية .

فإذا درس فلله ، وكل علمه لله وبالله وهو دائماً مع الله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

والأثر الثاني المتفرع من الأول الصدق ، وهو من علامات الإيمان ، ومن المنجيات في الدنيا والآخرة ، ويتبع هذا الصدق العِفَّةُ والمروءَة لأنهما متممان له . والأثر الثالث النصيحة ، فالمؤمن نصوح لا يَخْدع ولا يغش كما أنه حاذق لا يُخدع لأن الأثر الرابع هو الفهم .

قيل لعلي رضي الله عنه وكرم وجهه : (صِفْ لنا أمير المؤمنين عمر رحمه الله ؟) فقال :

ـ رحم الله أمير المؤمنين عمر ، كان له ورع يَحجُزه عن أن يَخدع ، وعقل يمنعه عن أن يُخدع . . .

فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ .

* * *

ولعل في قصة أمانة الصحابي الذي صحب أرمانوسةَ بنت المقوقس عظيم القبط ، ما يدل على توفر هذه الآثار كلِّها في نفوس الصحابة كلهم رضي الله عنهم ، وقد شهدت أرمانوسة بذلك لهذا الشاب الصحابي الذي اصطحبها إلى عمر رضي الله عنه بالمدينة من الفسطاط ، ولم يعرف من بنت المقوقس بنانَها ولا نَظَر إليها قطُّ ، حتى سلَّمها بَكْراً بعفتها إلى عمر رضي الله عنه وأُعجبت أرمانوسة بذلك الشاب الشهم العَفّ ، فطلبت إلى عمر رضي الله عنه الدخول في الإسلام ثم الزواج من ذلك الشاب الطاهر ، وقد حصل لها الإسلام والزواج ممن أُعجبت بشهامته وطُهره .

أما بعد ،

فالله تعالى يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

التربية الإسلامية تقوم على الجهاد في النفس والهوى في طاعة الله ومرضاته ، وكلُّ تربية لا تقوم على هذا الأساس لا تُثمر .

ثم إن الثمرات الطيبات التي نجنيها من هذا الجهاد الأكبر ، هو الهدايةُ إلى سبيل الله تعالى وطريقه المستقيم ، وتعليمُ الله العبدَ ، وتنويرُ قلبه وعقله ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

يا معشر الطلبة ، العلم أمانة لديكم ، والأجيال القادمة أمانة لديكم ، فاحفظوا الأمانة بتزكية نفوسكم وتطهير قلوبكم .

اللهم اهدنا بهداك ، وارزقنا العلم النافع والفهم عنك يارب العالمين .

* * *

دَوْحَةُ رمضانَ
جَامعةٌ كُبرى للحَقِّ والخَيْر والجَمال

قال الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

مما جاء عن علمائنا من سلفنا الصالح رحمهم الله رضي الله عنهم قولهم : (لكل وقتٍ وظيفةٌ ولكلِّ وظيفةٌ أدبٌ) رمضان ليس شهراً عادياً من شهور السنة ، يمر وينقضي كما ذهب الأمس وجاء اليوم ، بل هو أكبر وأجلُّ ، رمضان وَحْدةٌ متكاملة من الخير والحق والجمال ، تتألق هذه القِيَمُ فيه كما تتألق الزهراتُ الباسمات في الروض المعشوشب تضمّخه بالشذا والعبير .

واليوم أودُّ أن أنظر إلى رمضان بعين العقل الإنساني المستنير بمصباح الوحي ، لأراه رؤية جديدةً جمالية قبل كل شيء وهل يعرف قيمة الجمال ويقَدْرُهُ قَدرَه إلا العقل المستضيء بنور السماء ، المستلهم معانيَ الحقيقة المجردة من ينابيعها ؟ وهل عرفت الأنعامُ يوماً معنى الحدائق المخضوضرة والمروج المعشوشة ؟ وهل ذاقت يوماً حلاوة مباهج الأنهار والأزهار في الرياض الغُنّ ؟ وهل طربت الأنعام الأطيار والشحارير وألحان البلابل وشجوِ الوُرْقِ على الغصون في الأصائل على الخمائل أو بين الجداول ؟

إنَّ هذه الكائنات لا تعرف من هذا كله إلا أنه علفٌ للأكلِ ، ولغوٌ من القولِ لا تأبه له ولم تُصغِ يوماً إليه . . . لا لشيء إلا لأنها تفتقد آلة هذا التذوق والتعرف والإدراك ، وتفتقر إلى المصباح الذي يبدد وجه الظلام عن هذا كلّه .

وكذلك فالآلةُ المهيَّأة بمصباحها لرؤية الجمال المعنوي هذا ، وللمعاني والمدركات الوجدانية جمال بديع لا يحيط به القول ، ولا تحدُّه اللغة . تلك الآلة هي العقل الإنساني حين ينبثق فيه نور يشرق من سماء العرفان .

ورمضان هو المناخ المُواتي لهذا الأمر باعتباره وقتاً زمنياً ، وإلا فرمضان أكبر مما ذكرتُ وما ذكر العلماء ومما سيذكرون ، لأنه قطعة من الحقيقة العليا لهذا الكون .

ولو أنك أيها الأخ المؤمن حدَّقت نظرَ البصيرة ، ودخلت محراب الفكر والتأمل لَوجدتَ مصداقَ ما أقول . فالرخامة الواحدة الجميلة يراها الجاهل فيجعلها عتبة لداره ، ويأخذها الوثني فيجعلها وثناً ينحته ليعبده من دون الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ويأخذها المؤمن الصالح فيجعل منها محراباً للتبتُّل والعبادة لله سبحانه وتوحيده .

إنَّ من المحرومين من الخلق من يمر بهم رمضان ، يأتي ثم يذهب فلا ينتفعون به . لا يرون فيه إلاّ شهراً صعباً مُرّاً ، يمنعهم من الراحة والتمتع بِبُلَهْنِيَةِ العيش كما تشاء لهم نفوسهم وأهواؤهم المرضية ، فهم كالحُمُر التي تمر بقصر الملك وبخزائنه وبحدائقه ، لا ترى في القصور إلا اصطبلاتٍ من طرازٍ جديد ، وسجوناً عليها الأغلال من الحديد ، ولا ترى في الخزائن الملكية إلا زرائبَ ، ولا في الحدائق الملكية إلا حشائش للأكل والعلف . . . وهؤلاء هم الذين عناهم الحديث الشريف : « من

أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين » الحديث رواه ابن حبان في صحيحه مرفوعاً والحاكم صححه .

أجل وإنَّ من المحرومين من الخلق من انغمسوا في الملذات الحسية ، فحُجبوا عن رؤية الأنوار والأسرار ، فظنوا أنَّ ما هم فيه هو كلُّ شيء ، وهو في عالم الحقائق لا شيء ، فهم كالأطفال يلعبون بلُعَبهم ، ودنياهُم الصغيرة هذه هم منغمسون فيها إلى قرارتهم ، يعتقدون أنَّ الوجود كله تلخص في هذه اللعب والخشاخيش ، وأنَّ الدنيا كلها هي ما هم فيه من سفساف الأمور وباطلها . أجل لا يَضير الحقيقة في شيء أنَّ أُناساً أدركوها أو لم يُدركوها ، كما لا يضير زنابق الحقل عدم وجود من يشمُّها أو من شموها وذموها ، فالحق والجمال شيء ثابت ، وقيمة من قيم الوجود لا تتأثر ، ورمضانُ لديَّ جزء من هذه الحقيقة الساطعة وقَبَسٌ من نورها ، وجانب من جوانب الجمال العلويّ ، يشرقُ كما البدر في ليل النفس الإنسانية المظلم الحالك ، فيُنير الأرجاء ، ويفوح كما العطر فيُضمِّخ الأشذاءَ .

وإذا كان الزمان ليلاً فبدرهُ رمضان ، وإذا كان بستاناً فزنبقه رمضان ، وإذا كان عطراً فمسكه رمضان ، ولو كان الدهر ملكاً فتاجه رمضان ، ولو كان عروساً فواسطة عِقْدها رمضان . « ولو تعلم أمتي مافي رمضان من خير ، لتمنَّوْا أن تكون السنَّةُ كلُّها رمضان » .

وكذلك القرآن المجيد في الكتب المنزلة من الوحي الإلهي ، هو قمة هذا الوحي وقُنّتُه وشرفُه الباذخ وجوهر حقيقته ، وإكليله الساطع المشرق ، هو في الكتب السماوية المنزلة كالملك بين الرعية ، وكالبدر بين النجوم ، وكالشروق لسائر اليوم .

فناسَبَ أن ينزل القرآن أول ما نزل في رمضان ، وأشهد أنْ لو نزل في غيره لما كان هذا الجمالُ والكمال .

وناسَبَ كذلك أن تقع في رمضان أعظم المعارك الإسلامية الكبرى وأولها بدر الكبرى ، ومنها حرب رمضان العربية الإسلامية . . .

فرمضان شهر الجهاد والصبر « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات » كما في الحديث الصحيح . وأما شرف نبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه ، فَحَسْبه أنه رسولُ الله وخاتم النبيين ، ثم هو عبد الله ورسوله وصفوةُ خلقه وأشرف رسله ، وهل يحيط بفضله وشرفه قول ؟

وبِمَ أنزل القرآن ؟

أنزل بالهدى والبينات من الهدى والفرقان ، وكل ذلك حقائق الوجود ، والحقائق لا يتقبلها كل الناس إلا من أنار الله عقولهم بأنوار القلوب الحزينة المنكسرة على أعتاب العبودية لله عزَّ وجلّ .

ولمثل هذا شرع الصيام والقيام في رمضان على سبيل الإلزام ، وهو نوع من الحرمان في ظاهره ، ولكنه في الحقيقة عطاء وأيُّ عطاء ، وهذا هو عين الجمال ، العطاء في ثوب الحرمان . . .

فما أشبَهَ رمضان بدوحة كبيرة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها ، لها جذور وجذع وأغصان وأوراق وثمار . . . تُغرس في تُربةٍ من الأرض طيبةٍ تُسقى من ماءٍ عذبٍ فرات . فجذرها العبودية لله عزَّ وجل ، وتربتُها التي تُغرس فيها هذه الشجرة المباركة هي النفس الإنسانية ، وجذعُها الصبر ، وأغصانها الجهاد بأنواعه ، جهاد النفس هواها في طاعة الله ، وجهاد أمام العدو الغاشم والاستكبار العالمي من ورائه ، وأما أوراقها فالإيثار ونكران الذات . . . وأما ماؤها فالقرآن . . . القرآن الذي أنزل في رمضان ليسقيَ عروق رمضان ، لأنَّ القرآن ماءُ الحقائق وماء القلوب والأرواح ، به حياتُها وعليه قيامها كالماء الطبعيِّ به حياة الأجساد والأبدان وعليه قِوامُها . القرآن ماء المعاني ونور الأنوار ،

وجوهر الحقائق ، تُسقى به تربةُ النفس الإنسانية لتنموَ دوحة رمضان الإيمانية وتعلوَ وتزهُو ثم تُثمر. . . وأما الغارس صاحب هذه الشجرة المباركة فهو نبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه هو صاحب البستان ، وصاحب الفردوس الأعلى والحوض المورود والكوثر. . .

وبعد ، فمن أزاهير رمضان وعِطره وندِّه ، ونحن نتفيَّأُ ظلاله الوارفات ، تلك الوسطية التي تميزت بها التكاليف الإسلامية بعامةٍ ورمضانُ بخاصةٍ ، وهي من أروع ملامح الجمال والكمال والألوان والظلال في دوحة رمضان .

فرمضان صوم وسط في شريعتنا بين جانبي الإفراط والتفريط ، فلقد كان من قبلنا من الأمم قومٌ تشددوا وقوم تساهلوا ، فجاء رمضان منهجاً وسطاً . فانظر يا أخي إلى عجيب ما نبه الله عليه من سَعة فضله ورحمته في هذا التكليف ، فقد نبه إلى أنَّ لهذه الأمة في شرعة الصوم أُسوةً بالأمم السابقة ، وإلى أنَّ الصوم سبب لحصول التقوى ، فلو لم يفرض لفات هذا المقصود الرفيع ، وإلى أنه مختصّ بأيام معدودات ، فإنه لو جعله أبداً لحصلت المشقة العظيمة ، وإلى أنه خصه من بين الشهور ، بالشهر الذي أُنزل فيه القرآن لكونه أشرفَ الشهور ، وإلى أنّ إزالة المشقة في إلزامه متحققَة ، فأباح تأخيره لمن يشق عليه من المسافرين والمرضى ، ثم هو بعدُ مؤقت بوقتٍ معينٍ لا يسع غيره ، فيصح إطلاق نية الصوم فيه ، لأنه متعين ولا يضر الخطأ في الوصف ، وتكون النية تقديرية فيه ، وهي كافة في الجزء الأول منه ، وكل ذلك توسط بين التخفيف والتشديد ، لتتيسَّر العبادة على المكلفين مع نوعِ مشقة محتملة مقبولةٍ يكون فيها ترويضٌ للنفوس وتربية من الشارع الحكيم لها ، فهو عطاء كريمٌ ورحمة في ثوب منع ، فما أجمل هذه الوسطية التي يتحفنا بها شهرنا الزاهر

رمضان ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

ثمَّ تثمر دوحة رمضان ، أتعلمون ما هي ثمراتها ؟ إنه الفوز في الآخرة ، والنصر في الدنيا ، أما الثمرة الأولى فقال فيها ربنا تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . ورمضان أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار . وأما النصر فهو استرداد الأقصى وتحرير المقدسات ودحر اليهود الصهاينة ومن وراءهم من الاستكبار العالمي البغيض . قال تعالى : ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف : ١٣] .

أما بعد ، فلعل هذه الجولة في حدائق الفكر تكشف عن كثير من الحقائق ، ظلت قابعةً في زوايا النسيان ، لتُشرق شموسها في العقول من جديد ، ولعلَّ أريج رمضان وجَماليتَه تملأ حياتنا بالنَّدى ، وتسكب قوارير العطر يعبق منها العود والندّ في الدنيا والآخرة ، ولمن خاف مقام ربه جنتان ، وصَدق الله تعالى إذ يقول : ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين : ١٨ـ٢٨] .

* * *